

الاقتران الشائلي بين اسم الله «السميع» واسمه «العليم» في السياق القرآني

أ.د. زياد خليل الدغامين*

تاريخ إجازة البحث: فبراير ٢٠١٨م.

تاريخ استلام البحث: أكتوبر ٢٠١٧م

ملخص البحث

يتناول هذا البحث بالدراسة إحدى ظواهر القرآن الأسلوبية التي تتعلق باقتران اسمين من أسماء الله الحسنى في السياق القرآني، هما: السميع والعليم. فيعرف بهذين الاسمين، ويكشف عن ورودهما في القرآن الكريم في الآيات المحكية والمدنية، ووروده في سياق إحاطة الله تعالى بأحوال الخلق فيما يتصل بالإيمان وقضائاه، وسياق الدعاء، وشؤون القتال في سبيل الله وأثاره، وفي سياق التشريع والأخلاق، وفي سياق التحذير من نزع الشيطان واتباع خطواته، وفي سياق السنن الإلهية في الخلق. ومن أبرز النتائج: ارتباطهما - في الأعم الأغلب - بأحداث وقعت، ومواقف ذات شأن اتخذت، استدعت هذين الاسمين الجليلين. ويهدف إلى تحريك القلوب وإثارة الإحساس باستشعار مراقبة الله تعالى في الأقوال الظاهرة والنوايا الباطنة، وفي قضايا الإيمان والسلوك، مما يورث الاستقامة على هدي الله سبحانه. وأقيم هذا الاقتران شاهداً على سنن الله في الخلق، فالالتزام بها ينبغي أن يتحقق في القول الظاهر، والنية القاصدة، والله بهما سميع عليم.

المقدمة

من الظواهر العجيبة في كتاب الله تعالى ظاهرة الفاصلة القرآنية، وما جمع فيها - في الأعم الأغلب - من أسماء الله الحسنى، وهي ظاهرة يلحظها القارئ لكتاب الله والحافظ له، وخاصة حين تشبه عليه فاصلة الآية بفواصل أخرى مشابهة فيختم سميع عليم بسميع بصير... ويجد صعوبة في ضبط القراءة بالفاصلة على وجهها، الأمر الذي التبس حتى على بعض العلماء من الأقدمين، فقد قال الأصمعي قرأت هذه الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾... الآية، وإلى جنبي أعرابي فقلت: والله غفور رحيم سهواً. فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله. قال: أعد، فأعدت: والله غفور رحيم، فقال: ليس هذا كلام الله. فتنبهت، فقلت: والله عزيز حكيم، فقال: أصبت هذا كلام الله، فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قلت: فمن أين علمت أني

(*) الأستاذ الدكتور / زياد خليل الدغامين يحمل شهادتي الدكتوراه في تفسير القرآن الكريم وعلومه والمجستير في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم يعمل أستاذاً في كلية الشريعة بجامعة آل البيت - الأردن له عدة كتب منشورة وأبحاث علمية في مجال التخصص وشغل عدة مناصب إدارية. الاهتمامات البحثية: التفسير الموضوعي، الدراسات الفكرية.

أخطأت؟ فقال: يا هذا، عزّ فحكم فقطع ولو غفر ورحم لما قطع^(١).

فهل لنظام الفاصلة من قانون؟ وهل لختم الآية بها من حكم وأسرار؟ الجواب قطعاً: نعم، لها قانون تنتظم به، وتتضمن من الحكم والأسرار ما تستحق به أن تكون وجهاً مستقلاً من وجوه الإعجاز في السياق القرآني.

والظاهرة الفريدة في هذه الظاهرة العجيبة أنّ الكلام في جملة الفاصلة وقع في معظمه في التعريف بالله بأسمائه الحسنى، وقد وردت في كثير من الأحيان؛ لتعليل ما ورد في مضمون الآية التي هي فيها، مؤكدة أن الله تعالى متصف بالسمع والعلم، أو العزة والحكمة، أو العلم والحلم، أو الرحمة والرأفة، أو القهر والقدرة... فما السر وراء هذه الأسماء، ولم جاءت على هذا النحو؟.

وعلى الرغم من وجود رسائل جامعية حملت عنوان: «الاقتران الثنائي بين أسماء الله الحسنى» إلا أنّ رسالة واحدة لم تحمل العنوان الذي تحمله هذه الدراسة، ولم تتناول اقتراناً واحداً لتدرسه في القرآن الكريم دراسة استقرائية موضوعية.

فمن ذلك - مثلاً - رسالة بعنوان: الاقتران الثنائي بين أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم: ألفاظه ودلالاته، تقدم بها سنة ١٤١٨ هجرية الباحث فخري الجريسي، إلى مجلس كلية الآداب في جامعة الموصل، وهي رسالة ماجستير في اللغة العربية، عدد أوراقها مائتان وستون ورقة تقريباً، وقد بحثت في الأنساق الصرفية والمواقع النحوية لأسماء الله الحسنى المقترنة، ثم الدلالات المفردة، ثم دلالاتها في حال الاقتران، ونقل أقوال المفسرين في ذلك كله، فتلك الجهود لم تتناول اسماً معيناً تبحث فيه؛ مما يجعل هذه الدراسة متخصصة في اسم الله العليم من حيث اقترانه باسمه السميع،

وهناك دراسة أخرى، قام بها سليمان بن قاسم العيد بعنوان: اقتران الأسماء الحسنى في أواخر الآيات من سورة البقرة... حصرها، معانيها، مناسباتها، وقد ذكر اثني عشر اقتراناً، هي: العليم الحكيم، والتواب الرحيم، والواسع العليم، والسميع العليم، والعزیز

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، ابن الجوزي. زاد المسير في علم التفسير، (بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٤ هـ) ج ٢، ص ٣٥٤.

الحكيم، والرؤوف الرحيم، والشاكر العليم، والرحمن الرحيم، والغفور الرحيم، والغفور الحليم، والغني الحليم، والغني الحميد، تناول كل هذه الاقترانات في تسع وثلاثين صفحة كان نصيب اقتران السميع العليم أربع صفحات. وهو لا شك مختلف عن هذه الدراسة منوها وموضوعا وأسلوبا وحجما.

مشكلة الدراسة:

تحاول هذه الدراسة إلى تركيز النظر في اقتران خاص، ذلك هو اقتران اسم الله تعالى السميع باسمه تعالى العليم في القرآن كله. فكم مرة ورد هذا الاقتران في كتاب الله تعالى؟ وما القضايا التي اقترن بها؟ وما دلالة ذلك وما أثره وانعكاسه على العبد؟ وما القواعد التي تحكم ورود هذا الاقتران؟ تلك هي الأسئلة التي تحاول هذه الدراسة الإجابة عليها بعون الله تعالى وتوفيقه.

ووقعت هذه الدراسة في مقدمة، وسبعة مباحث، وخاتمة:

المبحث الأول: معنى اسم الله «السميع» واسمه «العليم» وورودهما مقترنين في السياق القرآني.

المبحث الثاني: ورود اسم الله «السميع» واسمه «العليم» مقترنين في سياق إحاطة الله بأحوال الخلق فيما يتصل بالإيمان وقضاياه.

المبحث الثالث: ورود اسم الله «السميع» واسمه «العليم» مقترنين في سياق الدعاء.

المبحث الرابع: ورود اسم الله «السميع» واسمه «العليم» مقترنين في سياق القتال في سبيل الله وآثاره.

المبحث الخامس: ورود اسم الله «السميع» واسمه «العليم» مقترنين في سياق الأخلاق والتشريع.

المبحث السادس: ورود اسم الله «السميع» واسمه «العليم» مقترنين في سياق التحذير من نزع الشيطان وخطواته.

المبحث السابع: ورود اسم الله «السميع» واسمه «العليم» مقترنين في سياق السنن الإلهية في الخلق.

الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج البحث.

المبحث الأول

معنى اسم الله «السميع» واسمه «العليم»

وورودهما مقترنين في السياق القرآني

تعريف اسمه السميع:

السمع صفة من صفات الله تعالى، والسميع اسم من أسمائه الحسنى سبحانه، عرفه الغزالي بقوله: «هو الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي، فيسمع السرّ والنجوى، بل ما هو أدق من ذلك وأخفى»^(١)، وذكر البيهقي في الأسماء والصفات عن الحلبي قوله: «السميع: هو المدرك للأصوات التي يدركها المخلوقون بأذانهم من غير أن يكون له أذن، وذلك راجع إلى أن الأصوات لا تخفى عليه، وإن كان غير موصوف بالحس المركب في الأذن»^(٢). وهذا يعني أن هذه الصفة متصلة بالخلق من حيث إحاطة سمعه سبحانه بقول كل مخلوق، وبنطق كل كائن، وبصوت كل حي، لا يعزب عنه من ذلك شيء. وهذا يعني أيضاً أن العناية الإلهية ترقب كل ما يصدر عن الخلائق من أقوال وأصوات مسموعة أو خفية.

تعريف اسمه العليم:

العليم والعالم من أسماء الله الحسنى، وهما مشتقان من العلم، والعلم هو إدراك الشيء على ما هو به^(٣). وذكر العلماء في معنى «عليم» أقوالاً متقاربة، فيرى الخطابي أن «العليم هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق، وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم»^(٤) وقال ابن الأثير: «هو العالم المحيطُ علّمه بجميع الأشياء ظاهراً وباطناً دَقِيقاً وَجَلِيلاً على أتمّ الإمكان»^(٥). وذكر الزجاج أن العليم والعالم بمعنى واحد، إلا أن

(١) أبو حامد، محمد بن محمد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق: بسام الجابي، (قبرص: الجفان والجابي، ١٤٠٧هـ) ص ٩٠.

(٢) أحمد بن الحسين البيهقي، الأسماء والصفات، تحقيق: عبد الله الحاشدي، جدة، مكتبة السوادى، ١٩٩٣م، ج ١، ص ١١٩.

(٣) علي بن محمد الجرجاني، التعاريف، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ) ص ٦٦.

(٤) أبو سليمان، حمد بن محمد الخطابي، شأن الدعاء، تحقيق: أحمد الدقاق، (بيروت، دار الثقافة العربية، ١٤١٢هـ) ص ٥٧.

(٥) المبارك بن محمد، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي =

«عليم» فيه صفة زائدة على ما في «العالم»^(١). قال ابن حجر: «هذا بالنظر إلى أصل المعنى، وإلا فصيغة فعيل من صيغ المبالغة فمعناها زائد على معنى الفاعل. وقد ترد صيغة فعيل بمعنى الصفة المشبهة، وفيها أيضاً زيادة لدالتها على الثبوت بخلاف مجرد الفاعل، فإنه يدل على الحدوث»^(٢). كذلك، فإن اسمه «العالم» لم يأت في القرآن إلا مضافاً بخلاف اسمه العليم.

اقترن اسم الله تعالى «السميع» باسمه «العليم» في اثنتين وثلاثين آية: منها إحدى عشرة آية مكية، وإحدى وعشرين آية مدنية. وسرّ ورود هذا الاقتران في الآيات المدنية ضعفي وروده في الآيات المكية تقريباً يوحى بانتظام المجتمع المسلم في سلك الأمر الإلهي وعياً وإدراكاً لرقابة الله تعالى ومعرفة لصفاته الجليلة، وشعور أفرادها بأن الله سبحانه سميع عليم فيما يخص التزامهم بحدود ما شرع سبحانه في كتابه من أمر ونهي. وذلك أن الأمر والنهي في الآيات المدنية أكثر منه في الآيات المكية، لأن ما تهدف إليه تلك الآيات هو تحقيق عملية إصلاح وبناء شامل للفرد والأمة^(٣).

= (بيروت، المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ) ج ٣، ص ٥٦٠.

(١) انظر: أبا إسحاق إبراهيم بن محمد الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق: أحمد الدقاق، (دمشق: دار الثقافة العربية، ١٩٧٤)، ص ٣٩-٤٠.

(٢) أحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ) ج ٨، ص ١٥٥.

(٣) وقد ورد في معظمه بأسلوب القصر مؤكداً وغير مؤكد، وبأسلوب التأكيد من غير قصر، ففي ست آيات ورد: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، في البقرة ١٣٧، والأنعام ١١٥، الأنبياء ٤، العنكبوت ٥، وفي موطن واحد: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، يونس ٦٥، وفي موطن واحد: ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، المائدة ٧٦. وفي خمسة مواطن ورد: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، هي: الأنفال ٦١، يوسف ٣٤، الشعراء ٢٢٠، فصلت ٣٦، الدخان ٦.

وفي ثمانية مواضع ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، البقرة ٢٢٤، آل عمران ٣٤، ١٢١، التوبة ٩٨، ١٠٣، النور ٢١، ٦٠، وكلها مدنية.

وفي موطن واحد، ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، الأعراف ٢٠٠.

وفي موطنين: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، البقرة ١٢٧، آل عمران ٣٥. وهما مدنيتان. وفي ثلاثة مواطن: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، البقرة ١٨١، الأنفال ١٧، الحجرات ١، وكلها مدنية. وفي موطن واحد: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، البقرة ٢٢٧.

وفي موطن واحد: ﴿أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، البقرة ٢٤٤. وفي موطن واحد: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، الأنفال ٥٣. وفي موطن واحد: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، الأنفال ٤٢. وفي موطن واحد: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾، النساء ١٤٨.

وقد اطرّد في هذا الاقتران تقديم اسمه تعالى «السميع» على اسمه العليم في الآيات كلها، وسرّ ذلك - بالنظر إلى السياق - أنّ سمع الله هو الحاجة الملحة للعبد، فهو الأقرب إلى تثبيت قلوب الناس وتلبية حاجاتهم، فالعبد يحتاج إلى من يسمعه، والله محيط بكل قول منطوق، بل بكل خاطر مكتوم، يتردد في القلب المكشوف، أي: هناك علم سمعي يؤول إلى علم الله المطلق؛ لارتباط السمع بالحدث المباشر فور وقوعه، فحين تقول لشخص يشهد زوراً: الله يسمعك، ويسمع الآن شهادتك زوراً، فهذا أوقع في قلبه، وأرهب في نفسه من قولك الله يعلم حالك ويعلم شهادتك زوراً. ولما كانت الآيات كلها ذات صلة بأحداث متصلة بسلوك الإنسان لا جرم قدّم اسمه السميع على العليم بالنظر إلى تلك الحاجات. إنّ التذكير باسمي الله السميع والعليم في الآيات القرآنية يرد تثبيتاً للخلق، وتطميناً للقلوب، وتحذيراً للنفوس في سياق قرآني متنوع، وتفصيل ذلك:

المبحث الثاني

ورود اسم الله «السميع» واسمه «العليم» مقترنين في سياق إحاطة الله بأحوال الخلق فيما يتصل بالإيمان وقضاياها

إحاطة الله سبحانه سماعاً بكل مسموع، وعلماً بكل معلوم، بحيث لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من أحوال المخلوقات وشؤونها معتقد ينبغي أن يرسخ في نفوس الناس وقلوبهم. وقد ورد الاقتران بين اسميه السميع والعليم هنا في سياق إحاطة الله تعالى بأحوال الخلق سماعاً وعلماً، وهي إحاطة تشمل الكون الأعظم، وكل ما فيه من همسات وزفرات وأقوال وأفعال، ونوايا باطنة وأعمال ظاهرة؛ مما يعني أنّ من مقتضيات الربوبية أن يكون الله سبحانه سميعاً عليماً، وشملت مظاهر الإحاطة الإلهية ما يأتي:

١. كل ساكن في الليل والنهار، وكل قول في السماء والأرض:

اقترن اسمه تعالى السميع بالعليم في آيتين كريمتين تبين إحداهما جلال أسماء الله وكمال صفاته، وتعرّف به في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام: ١٣). يشير سياق الآية الكريمة إلى سعة ملك الله تعالى، فله ما سكن في الليل والنهار، ولا يكون مالكاً إلا إذا كان محيطاً بما خلق، ولا يكون كذلك حتى يكون سميعاً عليماً، ومتى كان سميعاً عليماً كان متصرفاً في ملكه بما يشاء كيف يشاء، ومن مظاهر هذا التصرف أنه يحشر الخلق للحساب يوم القيامة، وهنا تتجلى رحمته تعالى لينال

كل حسابه بما يتفق مع علم الله المطلق وسمعه، فهو سبحانه المحيط بما خلق سمعا وعِلماً. قال أبو حيان: «لما ذكر تعالى أنَّ له ملك ما حوى المكان من السموات والأرض، ذكر ما حواه الزمان من الليل والنهار، وإن كان كل واحد من الزمان والمكان يستلزم الآخر، لكن النص عليهما أبلغ في الملكية وقدّم المكان؛ لأنه أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان»^(١).

وفي الآية ما يدل على إحاطة الله تعالى بالإنسان والمخلوقات كلها في عالمي الليل والنهار، قال القرطبي: «والمراد ما سكن وما تحرّك، فحذف لعلم السامع. وقيل: خص الساكن بالذكر؛ لأنّ ما يعمه السكون أكثر مما تعمه الحركة. وقيل المعنى ما خلق، فهو عام في جميع المخلوقات متحرّكها وساكنها، فإنه يجري عليه الليل والنهار، وعلى هذا فليس المراد بالسكون ضد الحركة بل المراد الخلق، وهذا أحسن ما قيل، لأنه يجمع شتات الأقوال»^(٢).

ووقوع هذا الاقتران كان مناسباً للتعريف به في هذا السياق، فليس إلها ولا رباً من لا يتصف بالسمع المطلق والعلم المطلق، وبذلك يتقرّر في نفوس المخاطبين أنّ الله متفرد بصفات الكمال كالسمع والعلم، فيعرفون ربهم معرفة صحيحة، ويراقبونه في أقوالهم وأعمالهم، ومقاصدهم وغاياتهم، وظاهرهم وباطنهم، فيبقى الوازع لديهم يقظاً مستنيراً، وهذه خطوة على طريق الاستقامة والصلاح بتأسيس المعتقد الحق به سبحانه.

أما الآية الأخرى فهي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنبياء) أي: لا يخفي عليه شيء مما يقال في السماء والأرض^(٣).

والقول هنا عام يشمل السرّ والجهر كما ذكر الزمخشري^(٤)، ومعنى هذا أنّ الكلمة التي تسبح في الفضاء الكوني - على اتساعه - يسمعها الله تعالى، ويعلم مراد قائلها، فهو وحده المختص بذلك، وهو من مقتضيات ربوبيته تعالى للخلائق والأكوان، فالكون مخلوق هائل عظيم، وعدد ما فيه من أنواع الكائنات يفوق التصرّور، وحجم الإنسان بالنسبة إلى هذا الكون

(١) أثير الدين محمد بن يوسف، أبو حيان، البحر المحيط، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ) ج ٤، ص ٨٧.

(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥ م) ج ٦، ص ٣٩٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ج ١١، ص ٢٧٠.

(٤) محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (بيروت، دار إحياء التراث العربي، بلا تاريخ) ج ٣، ص ١٠٤.

وما فيه لا يكاد يساوي ذرة، ولربما يتوهم الإنسان أن حاله هذا قد يخفى على الله تعالى، وأنه مهما قال وفعل فهو بمنأى عن الحساب والعقاب، فوقع الاقتران بين اسميه السميع والعليم في آيتين تتوجهان إلى الإنسان؛ لتدفعاً هذا التوهم، ولتخبراه بأن لا يخفى على الله من أمرك شيء حتى الكلمة تنطقها فإنه سبحانه يسمعها، بل ما يتردد في صدرك من خواطر أو هموم فإن الله يعلمه. فقد شملت إحاطته تعالى كل مسموع، وكل معلوم، فسمعه مطلق، وكذا علمه، وشملت هذه الإحاطة العوالم العلوية، والعوالم السفلية.

وقد وردت الآية في سياق الحديث عن أولئك اللاهية قلوبهم عن اقتراب أجلهم وأجل حسابهم، فمهما يقولوا من قول في شأن هذا النبي، أو شأن هذا القرآن، ومهما يبيطنوا من نية فهي لا تخفى على الله، وسيحاسبهم عليها؛ فكأن في الآية تهديداً ووعيداً. ومن شأن هذا أن يدفع إلى الانصراف عن اللهو والسخرية والاستهزاء بالحق، والاستقامة على هدي الله تعالى فقد تجاوز سمع الله وعلمه حدود الإنسان وعالم الإنسان وفضاء الإنسان؛ ليشمل الفضاء الكوني كله، كل قول في جنس السماء وكل فعل، كل ظاهر وكل باطن، فليحذر الذي يخالفون عن أمره أن يغتروا بأن لا رقيب عليهم ولا حسيب، فيصيبهم عذاب أليم. وكونه سبحانه سميعاً عليمًا يجعل رقابة الله مهيمنة على أقوال الناس ونياتهم في موقفهم من الإيمان بهذا النبي وهذا القرآن. ووقوع هذا الاقتران في سياق قضية تتعلق بالنبوة يشير إلى حراسة الله تعالى لهذه النبوة وعنايته بها.

٢. إحاطة الله تعالى بأحوال الخلق من حيث موقفهم من الإيمان:

من القضايا الجامعة التي تهم الإنسان، وتشكل له منهج الحياة العقيدة الإيمانية التي يعتنقها والتي تتيح له كيفية التعامل مع الوجود الكوني كله، وفي هذا السياق ورد الاقتران بين الاسمين الجليلين: السميع والعليم تأكيداً للرقابة الإلهية لما تنطق به ألسنة المكلفين وما تنطوي عليه قلوبهم. فقد ورد متصلاً بشأن أهل الكتاب الذين يفترض فيهم أن يكونوا على صراط مستقيم في توحيد الله وعبادته بسبب ما أنزل الله إليهم من كتاب، لكن أن يفسد توحيدهم لله، وتخرج عبادتهم إلى الشرك والوثنية هو محل الدهشة والإنكار، قال تعالى منكرًا عليهم موبخاً لهم: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (المائدة) على أن الخطاب متوجه إلى كل من يصلح للخطاب -ممن المكلفين- ممن يعبد غير الله تعالى، ووروده في سياق الإنكار والتوبيخ لكل من يعبد غير الله

يُوحى بمعادلة غير منطقية تقررت في أذهان أولئك العابدين، إذ كيف يعبدون من لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً والحال أن الله سميع عليم؟ مما يعني وعيدهم وإنذارهم، فالذين يعبدونهم لا يملكون إجابة دعائهم، ولا سماع أقوالهم، ولا يعلمون حاجاتهم، وما تبثه نفوسهم؟ لا يعلمون شيئاً من أحوالهم، ومن كان كذلك لا يستحق أن يكون معبوداً، إنما المعبود بحق هو من كان متصفاً بالسمع المطلق والعلم المطلق، ولا أحد يتصف بذلك إلا الله تعالى الواحد الأحد. قال أبو السعود: إنَّ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ مؤكِّد للإنكار والتوبيخ، ومقرّر للإلزام والتبكي، والرابط هو الواو، أي: أتشركون بالله تعالى ما لا يقدر على شيء من ضرركم ونفعكم، والحال أن الله تعالى هو المختص بالإحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات التي من جملتها ما أنتم عليه من الأقوال الباطلة، والعقائد الزائفة، والأعمال السيئة، وبالقدرة الباهرة على جميع المقدورات التي من جملتها مضاركم ومنافعكم في الدنيا والآخرة^(١).

كذلك، ورد في شأن إيمان أهل الكتاب، كي يؤمنوا بالإيمان الحق مثل إيمان أصحاب محمد ﷺ، فهم أولى الناس بذلك لما أنزل إليهم من كتاب، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِءُ فَقَدْ آهَتَدُوا وَإِنْ نُولُوا فَإِنَّمَ هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٧) ولما كان الحال في الآية ينم عن موقف يظهره أهل الكتاب إزاء عقيدة الإيمان الحق، والموقف يكون قولاً قائماً على نيّة ومقصد ختم الآية بالجملة الحالية ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع أقوالهم، ويعلم نباتهم ومقاصدهم. والإيمان إقرار وتصديق؛ ولأجلهما ختمت الآية بهذين الاسمين الجليلين.

وتوحي دلالة الاقتران عند الزمخشري معنى الوعد إضافة إلى الوعيد، فقال: وهذا «وعيد لهم، أي: يسمع ما ينطقون به، ويعلم ما يضمرون من الحسد والغل وهو معاقبهم عليه. أو وعد لرسول الله ﷺ بمعنى: يسمع ما تدعو به ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق، وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك»^(٢).

(١) محمد بن محمد العمادي، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، بلا تاريخ) ج ٣، ص ٦٨.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ٢٢٢.

٣. إحاطة الله تعالى بأحوال النبي ﷺ:

عناية الله تعالى بأنبيائه كبيرة، فمعيته لهم متحققة، ونصرته لهم متيقنة، يسمع دعاءهم، ويعلم باطنهم وظاهرهم. وهذا مظهر عنايته بهم. وقد ورد الاقتران بين اسميه السميع والعليم في شأن من شؤون نبوة محمد ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ لِمَن يَشَاءُ وَيُنَزِّلُ إِلَى دَرَجَاتٍ مَّن يَشَاءُ وَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الشعراء: ٢١٧-٢٢٠) ففي ما تقدم من آيات إشارة إلى عناية الله تعالى بمقام النبي ﷺ وهو يتحمل تبعات التبليغ والإنذار، والصبر على الأعباء الناتجة عن ذلك. ووقع هذا الاقتران - كما ترى - في آية كاملة وليس فاصلة آية، أو بعض آية. وفيه ما فيه من تسلية له ﷺ، فهو سبحانه مطلع على كل شأنه لا يخفى من حاله عليه شيء؛ مما يورث قوة في نفسه وثباتاً على الحق، ودواماً على الصبر. وذكر البقاعي أنّ في هذا الأسلوب ما يفيد أنّ «شمول العلم يستلزم تمام القدرة، فصار كأنه قال: إنه السميع العليم البصير القدير، تثبيتاً للمتوكل عليه»^(١). وتقوية لعزمه، وشحناً لطاقاته الروحية، مما يورثه قوة وثباتاً.

وذكر ابن عاشور ناحية أخرى في السياق فقال: «وموقع ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ موقع التعليل للأمر بـ ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا نَعْمَلُونَ﴾ وللأمر بـ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾، فصفة ﴿السَّمِيعُ﴾ مناسبة للقول، وصفة ﴿الْعَلِيمُ﴾ مناسبة للتوكل، أي أنه يسمع قولك ويعلم عزمك»^(٢).

كذلك ورد في سياق تسلية رسول الله ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْفِئَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يونس). ذكر البقاعي أنّ فاصلة الآية تعليل لتفردّه بالعزة، ويفيد أسلوب القصر انتفاء هذين الوصفين عن غيره، فليس سميعاً ولا عليماً إلا هو سبحانه، فهو السميع لأقوالهم، والمحيط العلم بضمائرهم^(٣).

والتفت ابن عاشور إلى منحى آخر له أثر نفسي في فاصلة الآية، وهو أن المخاطب إذا تذكر أنّ صاحب العزة يعلم أقوالهم وأحوالهم زاد ذلك قوة في دفع الحزن من أقوالهم عن نفسه؛

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ) ج ٥، ص ٣٩٩.

(٢) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون، ١٩٩٧ م) ج ١٩، ص ٢٠٤.

(٣) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٣، ص ٤٦٢.

لأنّ الذي نناه عن الحزن من أقوالهم وتناولهم أشدّ منهم قوة ومحيط علمه بما يقولونه وبأحوالهم. فهو إذا نهاك عن الحزن من أقوالهم ما نهاك إلا وقد ضمن لك السلامة منهم مع ضعفك وقوتهم؛ لأنه يمدّك بقوته وهو أعلم بتكوين أسباب نصرك عليهم^(١).

إنّ الخطاب في الآية موجّه إلى المخاطب الأول، والمبلغ الأول لهذا الوحي، رسول الله ﷺ. والخطاب صالح -بعد ذلك- للقيادة المسلمة، والجماعة المسلمة، والفرد المسلم، في كل زمان ومكان؛ لما أنّ الصراع مع الكفر والوثنية لا ينتهي ولا ينقطع، وهو صراع يتخذ مظاهر ووجوهاً كثيرة، ولعل الوجه الإعلامي لهذا الصراع هو ما تشير إليه الآية الكريمة، وقد يصيب المؤمن لأجل هذا الإعلام الذي يستند وينطلق من قاعدة الضلالة والتضليل والفساد والإفساد في الأرض، همّ وغمّ وتعب ونصب، فشدّ الله من أزر المخاطبين حين أعلمهم أنه سميع عليم، مما يقتضي الانتصار لهم، وردّ كيد أعدائهم.

ويظهر بذلك تعلق سمع الله تعالى بما في الكون كله من جهة، وبأحوال رسول الله ﷺ من حيث كونه المخلوق الأهم والأعظم من جهة أخرى، فقد جعل معادلاً له من حيث إنّ رسالته هي عنوان صلاح هذا الكون بأرضه وسمائه وليله ونهاره. وتعلّق - كذلك - بكل قول واعتقاد ينافي ما جاءت به الرسالة الخاتمة من هداية، وما عليه نظام هذا الكون من عبودية لله رب العالمين.

المبحث الثالث

ورود اسم الله «السميع» واسمه «العليم» مقترنين في سياق الدعاء

الدعاء توجّه قاصد من العبد إلى ربّه سائلاً إياه جلب نفع أو دفع ضرر في دنياه وآخرته، وقد يكون حمداً وثناءً على الله تعالى بما هو أهله، كقولنا في دعاء الاستفتاح سبحانه اللهم وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جدّك، ولا إله غيرك.

وقد ورد هذا الاقتران في هذا السياق في ثلاث آيات: ثنتين مدنيتين، وواحدة مكية، يميزها أنه جاء تعقيباً على دعاء نبي أو ولي صالح لدفع ضرر أو تحصيل نفع، وبيان ذلك:

١. في سياق الدعاء لتجاوز الفتن:

وذلك أنّ نبي الله يوسف - عليه السلام - قد أحاطت به فتنة النساء أيّما إحاطة، فقد

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١١، ص ٢٢٣.

حاصرته امرأة عزيز مصر بجمالها وإغوائها وسلطانها، وأشهدت نسوة المدينة بما قصَّ الله على لسانها: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكْسِبَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ (يوسف: ٣٢) ولما كان احتمال هذه الفتنة فوق طاقة البشر، لجأ يوسف - عليه السلام - إلى أعظم ملجأ قاصداً حمى ربّه تعالى، معتصماً بحبله المتين وصراطه المستقيم أن ينجيه من هذه الفتنة، وليخرج من هذا المأزق، قال سبحانه على لسانه: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا نَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصُبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣) فوقعت الاستجابة السريعة لما قصد إليه ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يوسف: ٣٤)، فالتعليل بأنه هو «السميع العليم» كان لأنهما أقرب أسماء الله الحسنَى إلى الحالة النفسية التي عاشها نبي الله يوسف - عليه السلام - مع هذه الأزمة أو الفتنة التي عزمت امرأة العزيز على تنفيذها بكل إصرار، ففي هذا الجو النفسي الذي خيم على قلب يوسف فكان أحوج ما يكون إلى من يسمع دعاءه، ويعلم حاله؛ ليكشف ما به من همٍّ وغمٍّ. فهذان الاسمان هما ما تتطلبه تلك الحالة النفسية الواقعة، فالله سبحانه قد سمع دعاءه من فوق سبع سموات، وعلم بحاله علماً يقينياً مطلقاً وصل إلى أعماق ما يدور في خلدّه وخاطرّه. وهذا ما يبعث الطمأنينة في قلب العبد، وينأى به عن السقوط في شرّ اليأس والقنوط. إنه الدعاء الذي يتفادى به العبد ما يسقطه عن رتبة الإنسانية في الرذيلة والخيانة. وهو خطر على إنسانية الإنسان وكرامته، وهو خطر جدير بأن يفزع الإنسان إلى ربّه ليعيذه منه، هذا هو الإنسان المكرّم وهو الإنسان الخليفة، فهل يستوي هذا مع من يريق كرامته وماء وجهه يلهث وراء الفاحشة والرذيلة؟

وقد ورد الاقتران هنا بأسلوب القصر، ومعناه أنّه لا أحد يسمع يوسف - عليه السلام - أو يعلم حاله، كسمع الله له، وعلم الله تعالى به. إضافة إلى ما في صيغ المبالغة في اسميه السميع والعليم من دلالة على إطلاقية هاتين الصفتين في حقّ الله تعالى، فلا يحول دون سماعه وعلمه شيء حتى لو كانت خاطرة تمرّ بالقلب.

٢. في سياق الدعاء لقبول العمل الصالح:

وثمة توجّه قاصد من العبد إلى الله تعالى؛ ليتمنّى على من يقوم بالعمل الصالح بالقبول، ورد ذلك على لسان نبيين كريمين هما إبراهيم وإسماعيل - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام - تعليماً للعباد، وإرشاداً لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ

رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿البقرة: ١٢٧﴾. وتمثل العمل الصالح هنا ببناء بيت الله الحرام، وما سيكون له من مكانة وأثر في حياة الأمة الإسلامية إلى يوم الدين. وفي معنى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قال الطبري: «أي: إنك أنت السميع دعائنا، ومسألتنا إياك قبول ما سألناك قبوله منا من طاعتك في بناء بيتك الذي أمرتنا ببنائه، العليم بما في ضمائر نفوسنا من الإذعان لك في الطاعة والمصير إلى ما فيه لك الرضا والمحبة وما نبدي ونخفي من أعمالنا»^(١).

وهذان الاسمان هما الأنسب لحال هذين النبيين الكريمين، فقد استجابا لله تعالى حين أمرا ببناء البيت، وشعرا أنهما أخلصا النية في ذلك، فتوجّها إلى الله أن يتقبل منهما عملهما؛ لأنّ ابتغاء رضوان الله مقصودهما، فتاقت نفساهما إلى أن يسمع الله لهما ويعلم حالهما في طلب قبول أعمالهما. وكأنّ العبد ليس مطلوباً منه أن يقتصر على أداء العمل الصالح مخلصاً لله فيه، بل عليه أن يكون حريصاً أكثر على أن يدعو الله ليتقبل منه ذلك، فأداء العمل عبادة، والتوجه القاصد إلى الله بقبوله عبادة أخرى، والأسماء الحسنى الأنسب لهذا المقام: السميع والعليم.

قال ابن عاشور: «وجملة ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تعليل لطلب التقبل منهما، وتعريف جزئي هذه الجملة والإتيان بضمير الفصل يفيد قصرين؛ للمبالغة في كمال الوصفين له تعالى بتنزيل سمع غيره وعلم غيره منزلة العدم»^(٢).

وبهذين الاسمين الجليلين تشبّث امرأة عمران في تضرّعها ودعائها، فقد نذرت - والوفاء بالنذر عمل صالح يدلّ على ولع العبد بعبادة ربّه وحبّه له - إن رزقها الله مولوداً ذكراً أن يكون محرّراً لله تعالى، «أي: خالصاً مفرغاً للعبادة ولخدمة بيت المقدس»^(٣)، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (آل عمران: ٣٥) «وهو تعليل لاستدعاء القبول لا من حيث إن كونه تعالى سميعاً لدعائها

(١) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان، تحقيق: أحمد شاكر (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ) ج ٣، ص ٧٣.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٧١٩.

(٣) أبو الفداء، إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي سلامة (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠ هـ) ج ٢، ص ٣٣.

عليماً بما في ضميرها مصحَّحٌ للتقبل في الجملة، بل من حيث إن علمه تعالى بصحة نيتها وإخلاصها مستدعٍ لذلك تفضلاً وإحساناً. وتأكيدُ الجملة لعرض قوّة يقينها بمضمونها. وقصرُ صفتي السمع والعلم عليه تعالى لعرض اختصاص دعائها به تعالى، وانقطاع حبل رجائها عما عداه بالكلية، مبالغةً في الضراعة والابتهال^(١).

وتشير الآيتان إلى أنّ اللحظة المناسبة التي يتوجه فيها العبد إلى الله متى ما استشعر الصدق والإخلاص في العمل، فيشهد العليم على حاله هذا القبول عمله تفضلاً وإحساناً؛ لأنه لا يستطيع أن يتوجّه إلى الله تعالى بقوله: يا سميع يا عليم، وهو مرآة بعمله يبتغي حظاً من حظوظ الدنيا، ولا يبتغي بعمله وجه الله تعالى! فتقع الإجابة حين يبلغ الصدق والإخلاص مداه.

ويلحظ في الآيات معنى واحد، وهو التضرّع إلى الله بأنسب أسمائه لمقام الضراعة والخضوع من حيث مقال العبد وحاله، فمقال العبد يتطلب سميعاً، وحاله يتطلب عليمًا، والله هو السميع العليم. وحرص العبد وسعيه إلى أن يتقبل الله عمله عنوان يمنح العبد إحساساً بالعبودية لأكرم الأكرمين وربّ الخلائق أجمعين، وشعوراً بحلاوة الإيمان، فإذا لم يصل العبد بعمله إلى هذا المستوى فما قيمة هذا العمل؟ إنّ العمل الصالح لا يكفي لمنح العبد هذا الشعور بتحقيق العبودية، ولا يمنحه شعوراً بالطمأنينة واليقين إلا حين يستشعر الصدق والإخلاص، فيتوجه إلى السميع العليم لقبول الدعاء.

ولأنّ المقام مقام دعاء وتذلّل وتضرّع، ولأنّ الدعاء ينمّ عن تربية وقع مصدراً باسمه «الرب» في الآيات الثلاث: ﴿قَالَ رَبِّ الْمَسْكُونِ أَحَبُّ إِلَيَّ...﴾ الآية. ﴿رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا...﴾ الآية، ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا...﴾ الآية. وكأنه يقول للعباد: ربكم الذي تتوجهون إليه بالدعاء سميع عليم. وهو هنا يعلمهم ويربيهم كيف يخرجون من الأزمات كما في دعاء يوسف - عليه السلام -، وكيف يرتقون بأنفسهم نحو الكمال بالامتثال لأمر الله تعالى كما في دعاء إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام -، وكيف يتقربون إليه بأعلى ما عندهم وأنفس خدمة لدين الله تعالى، كما هو دعاء امرأة عمران.

وتختلف آيات الدعاء هنا عن سائر آيات الدعاء في كتاب الله تعالى من حيث اقترانها

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج ٢، ص ٢٨.

بالأسماء الحسنى فقد ارتبطت هنا بحدث مباشر منجز، ولا كذلك سائر الآيات، لذلك اقترنت باسميه: السميع والعليم.

المبحث الرابع

ورود اسم الله «السميع» واسمه «العليم»

مقترنين في سياق القتال في سبيل الله وآثاره

وقع الاقتران بين الاسمين الجليلين: السميع والعليم في سياق القتال في سبيل الله وما ترتب عليه من آثاره كالنصر ومسألة أعداء الله، ووردت ست آيات في هذا السياق من حيثيات متعددة نبينها كما يأتي:

١. في سياق الأمر بالقتال:

أمر الله تعالى بالقتال في سبيل الله حماية للدين والعقيدة، ونصرة للمستضعفين في الأرض، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٤٤) وفي فاصلة الآية دار معظم كلام المفسرين على القول: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِ كُلِّ مَنْ يَنْفَرُ مِنَ الْقِتَالِ أَوْ يَرْغَبُ فِيهِ، عليم بالنيات والبواعث، أو بما تضمرون من الإعراض أو الإقبال على القتال، قال الرازي: «أي: هو يسمع كلامكم في ترغيب الغير في الجهاد، وفي تنفير الغير عنه. وعليم بما في صدوركم من البواعث والأغراض، وأن ذلك الجهاد لغرض الدين أو لعاجل الدنيا»^(١).

وجعل الطبري متعلق السمع والعلم أعمال من أعرض عن هدي الله من المشركين والمنافقين وغيرهم. فقد أمر الله المؤمنين أن يشكروه على ما شرع لهم من جهاد في سبيل الله، ومن أمر ونهي، إذ كفر الآخرون نعم الله عليهم، واعلموا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لِقَوْلِهِمْ، وعليم بهم وبغيرهم وبما هم مقيمون عليه من الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، محيط بذلك كله، فيجازي كلًّا بما هو أهله»^(٢). مع أَنَّ الآية في خطاب مباشر للمؤمنين.

وأحوال المخاطبين من المؤمنين هي المتعلقة عند صاحب المنار حيث ذكر أن استحضر هذين الاسمين للتنبيه على مراقبة الله لنا في كل أقوالنا وأعدارنا إزاء هذا الأمر والاستعداد له،

(١) محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ) ج ٦، ص ١٤١، وانظر: القرطبي ج ٣، ص ٢٣٦، والباقعي ج ١، ص ٤٦٨، والأكوسي ج ٢، ص ١٦٢.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان، ج ٥، ص ٢٨١.

فيسمع أقوال الجبناء وما يتعللون به من أعذار هي ذنوب وأوزار، ويعلم بما يأتيه مرضى القلوب وضعفاء الإيمان من الحيل والمراوغة والفرار من الاستعداد والمدافعة، فإذا علمنا هذا، وحاسبنا به أنفسنا عرفنا أن كلاً من المعتذر بلسانه والمتعل بفعاله مخادع لربه ولنفسه وقومه^(١).

وربط ابن عاشور بين الفاصلة وما ترتب على الأمر بالقتال من آثار، فقال: «حث على القتال وتحذير من تركه بتذكيرهم بإحاطة علم الله تعالى بجميع المعلومات: ظاهرها وباطنها. وقدم وصف سميع، وهو أخص من عليم، اهتماماً به هنا؛ لأن معظم أحوال القتال في سبيل الله من الأمور المسموعة، مثل جلبه الجيش وقعة السلاح وصهيل الخيل. ثم ذكر وصف عليم؛ لأنه يعم العلم بجميع المعلومات، وفيها ما هو من حديث النفس مثل خلق الخوف، وتسويل النفس القعود عن القتال، وفي هذا تعريض بالوعد والوعيد. وافتتاح الجملة بقوله: «واعلموا» للتنبيه على ما تحتوي عليه من معنى صريح وتعريض»^(٢).

إن الحالة النفسية للمؤمنين في استجابتهم لأمر الله بالقتال تتطلب صفتي السمع والعلم؛ لأنهما أقرب ما يؤنس قلب المؤمن المقبل على الله تعالى ابتغاء ما عنده. فتقديم صفة السمع نظراً إلى حالة المؤمن النفسية التي يرجو بها أن يسمع الله دعاءه بطلب النصر فيستجيب له، لا إلى أحوال القتال المسموعة من جلبه الجيش وقعة السلاح وصهيل الخيل، فهي ليست موضع اهتمام، ولا يترتب عليها آثار إيجابية تخص المقاتلين! كما ذكر ابن عاشور - رحمه الله -.

٢. في سياق الاستعداد والجاهزية:

تتطلب تهيئة الصفوف واتخاذ المواقع للمواجهة مع أعداء الله ورسوله أهمية كبيرة؛ لما تقتضيه من ضرورة التخطيط والتنظيم والإعداد والاستعداد، كما حدث في غزوة أحد، وورد في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٢١)، وفي معنى الاقتران ذهب كثير من المفسرين إلى القول: إن الله سميع

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار (مصر، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٠م) ج ٢، ص ٣٦٥.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢، ص ٤٨٠-٤٨١.

لأقوال المؤمنين، عليم بضمايرهم ونياتهم، قال الرازي: ذكرنا أنه - عليه السلام - شاور أصحابه في تلك الحرب، فمنهم من قال له: أقم بالمدينة، ومنهم من قال: اخرج إليهم، وكان لكل أحد غرض آخر فيما يقول، فمن موافق، ومن مخالف فقال تعالى: أنا سميع لما يقولون عليم بما يضمرون^(١)».

قال الشعراوي: «ويذيل الحق هذا بقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ حتى يعرف المؤمنون أنه سبحانه قد شهد أن رسوله قد بوأ المؤمنين مقاعد القتال، وهو سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يكون في النيات؛ لأنَّ المسألة في الحرب دفاع عن الإيمان وليست انقياد قوالب، ولكنها انقياد قلوب قبل انقياد القوالب»^(٢).

إنَّ ختم الآية ببيان أنَّ الله سميع عليم، يدفع المسلم إلى الاستجابة والاستقامة على أمر الله في المضي إلى الجهاد، والإقدام على مقارعة العدو بلا خوف ولا وجل. ويقتضي كذلك تحريض المؤمنين وتحذيرهم من النكوص والتراجع والخذلان. وتشي الآية بضرورة تأسيس العقيدة العسكرية القتالية القائمة على أنَّ الله سميع عليم التي تقتضي الخوف والرهبة ومراقبة الله تعالى في كل حين، وخصوصاً حين الإقدام على القتال ومواجهة أعداء الله فإنَّ الله سميع عليم.

٣. في سياق المواجهة والصبر عند اللقاء:

تعدُّ هذه المرحلة من أشدَّ المراحل خطورة بالنسبة إلى الوضع النفسي للمؤمن، وهو وضع يقتضي أن يكون فيه أشدَّ ما يكون ثباتاً في الحرب، وطلباً لنصر الله سبحانه وتعالى وصبراً عند اللقاء، فحين يلهج لسانه بذكر الله مدحاً وتسبيحاً ودعاءً، يأمل من الله أن يستجيب له، ويكون معه بسمعه وعلمه، فالله هو السميع العليم، ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِيَّاهُمْ بِالْعُدُوِّ الْفُصُوءِ وَالرَّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٢)، قال الرازي: «يسمع دعاءكم ويعلم

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٨، ص ١٨١.

(٢) محمد متولي الشعراوي، خواطري حول القرآن، ج ١، ص ١١٦٤.

حاجتكم وضعفكم فأصلح مهمكم»^(١). وقال البيضاوي: «بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه، ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد»^(٢). وإلى قريب منه ذهب المراغي^(٣).

وجمع ابن عاشور معظم كلام المفسرين في هذا الاقتران، فذكر أنه يشير إلى أن الله سَمِيعٌ دُعَاءَ الْمُسْلِمِينَ طَلَبَ النَّصْرَ، وَسَمِيعٌ مَا جَرَى بَيْنَهُمْ مِنَ الْحَوَارِ فِي شَأْنِ الْخُرُوجِ إِلَى بَدْرٍ وَمِنْ مَوَدَّتِهِمْ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ هِيَ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ الَّتِي يَلَاقُونَهَا، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَعَلِيمٌ بِمَا يَجُولُ فِي خَوَاطِرِهِمْ مِنْ غَيْرِ الْأُمُورِ الْمُسْمُوعَةِ وَبِمَا يَصْلَحُ بِهِمْ، وَيُبْنِي عَلَيْهِ مَجْدَ مُسْتَقْبَلِهِمْ»^(٤).

لكن الموقف الأبرز الذي هيمن على نفس المسلم آنذاك هي لحظة القتال والإقدام عليه، تلك اللحظة التي يغلب على الظن فيها الهلاك، وقد علم من خرج من المسلمين للقتال أنهم ما خرجوا إلا ابتغاء رضوان الله تعالى وانتصاراً لدينه، وهذا هم يؤرقهم، ويجعلهم في هذه حالة نفسية حرجة تستدعي أن يسمع الله دعاءهم ويعلم حقيقة إخلاصهم فيمن عليهم بالثبات والسكينة والنصر. فضلاً عن أن الله يسمع ويعلم حقيقة الآخرين من المشبطين والمتخاذلين. وقد جاءت المؤكدات الكثيرة في هذه الفاصلة التي تلبي تلك الحالة النفسية، وتستجيب لدواعيها، ولتحذر المشبطين المتخاذلين أشد التحذير بأن الله لا تخفى عليه خافية من أمورهم وخواطرهم وأقوالهم في السر والعلانية.

٤. في سياق امتنان الله تعالى على المؤمنين بالنصر:

كذلك، وقع الاقتران معروفاً بالله جامعاً بين هذين الاسمين الجليلين من أسمائه الحسنى في سياق الحديث عن القتال، كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ١٧) ففي الآية هنا بشارة ونذارة كما ذكر المفسرون، بشارة للذين يستشعرون نعمة النصر من الله، وقلوبهم آمنة مطمئنة بأن الله قد استجاب دعاءهم واستغاثتهم، ونذارة

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١٥، ص ١٣٥.

(٢) ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل، (بيروت، دار الفكر، بلا تاريخ)، ج ٤، ص ٢٤.

(٣) أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (مصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٦م) ج ١٠، ص ٧.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٠، ص ٢١.

للذين لم يستشعروا هذه النعمة، وأسندوا النصر لأنفسهم ممن كانوا يقاتلون نخوة وحمية، فنياتهم الباطنة لا تشفع لأعمالهم الظاهرة. قال الرازي: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، أَي: سميع لكلامكم، عليم بأحوال قلوبكم، وهذا يجري مجرى التحذير والترهيب، لئلا يغتر العبد بظواهر الأمور، ويعلم أن الخالق تعالى مطلع على كل ما في الضمائر والقلوب»^(١).

ووضّح أبو حيان ذلك بقوله: «لما كانوا قد أقبلوا على المفاخر بقتل من قتلوا، وأسر من أسروا، وكان ربما قد لا يخلص العمل من بعض المقاتلين، إما لقتال حميّة، وإما لدفع عن نفس، أو ما - شابه ذلك - ختمت بهاتين الصفتين، فقيل: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ لكلامكم وما تفخرون به، عليم بما انطوت عليه الضمائر، ومن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا»^(٢).

وبين صاحب المنار سرّ الاقتران في الفاصلة، فذكر أنها تعليلٌ مُستأنفٌ للبلاء الحسن، والمراد أنه تعالى سميعٌ لما كان من استغاثة المؤمنين مع الرسول ربهم، ودعائهم إياه وحده، عليمٌ بصدقهم وإخلاصهم، وبما يترتب على استجابته لهم من تأييد الحق الذي هم عليه، وخذلان الشرك، كما أنه سميعٌ لكل نداء وكلام، عليمٌ بالنيات الباعثة عليه، والعواقب التي تنشأ عنه، وبكل شيء»^(٣).

ولعل ما ذكره صاحب المنار من بيان أوفق مما تقدّم ذكره من أقوال؛ لأن الآية تشير إلى أن إنعام الله عليهم بالنصر، وتدخل عنايته سبحانه بكسر شوكة الكفر والضلالة، كان بعد صبر من المؤمنين وثبات، واستقامة، ودعاء، وتضرّع إلى الله تعالى، وانتصار لدين الله تعالى، فارتبطت الفاصلة بحدث واقع ظهرت آثاره الإيجابية على المجتمع المسلم، فحصل ما حصل؛ لأن الله سميع عليم. وهذه بشرى للمؤمنين أن دعاءهم مسموع، ونياتهم عند الله معلومة.

٥. في سياق مسألة من يضع السلاح:

لا شك أن اللجوء إلى السلم والمصالحة وضع تقتضيه طبيعة القتال، لاسيما حين تنتصر الجماعة المسلمة على عدوها، وقد حث الله تعالى على مسألة من يسالم إن بدؤوا

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١٥، ص ١١٣.

(٢) أبو حيان، البحر المحيط، ج ٤، ص ٤٧٣.

(٣) رضا، تفسير المنار، ج ٩، ص ٥١٨.

هم بطلب السلام رغبة منهم؛ لأنّ الإسلام دين السلام، وليس القتال مقصداً من مقاصد الدين والشريعة، وقد وقع في فاصلة الآية التي تدعو إلى مسالمة أعداء الله إخبار عن الله تعالى بأنه سميع عليم على أسلوب بديع من أساليب القصر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١) قال ابن عاشور: «وَطَرِيقُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَفَادَ قَصَرَ مَعْنَى الْكَمَالِ فِي السَّمْعِ وَالْعِلْمِ، أَيْ: فَهُوَ سَمِيعٌ مِنْهُمْ مَا لَا تَسْمَعُ، وَيَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُ. وَقَصَرَ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ بِهَذَا الْمَعْنَى عَلَى اللَّهِ تَعَالَى عَقَبَ الْأَمْرَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ يُقْضَى إِلَى الْأَمْرِ بِقَصْرِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ لَا عَلَى غَيْرِهِ. وَفِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَمْرِ بِقَصْرِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَبَيْنَ الْأَمْرِ بِإِعْدَادِ مَا اسْتَطَاعَ مِنَ الْقُوَّةِ لِلْعُدُوِّ: دَلِيلٌ بَيْنٌ عَلَى أَنَّ التَّوَكُّلَ أَمْرٌ غَيْرُ تَعَاظِي أَسْبَابِ الْأَشْيَاءِ، فَتَعَاظِي الْأَسْبَابِ فِيمَا هِيَ مِنْ مَقْدُورِ النَّاسِ، وَالتَّوَكُّلُ فِيمَا يَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ»^(١).

وقد جاء أسلوب القصر دافعاً ما ينشأ في النفوس من توهم خطر الإقدام على مسالمة أعداء الله دون أن يتمكن المسلم من الوقوف على حقيقة أقوالهم ونياتهم، ومعرفة مقاصدهم وما يرمون إليه من هذا السلم، فقد يرغبون بالوقیعة بالمسلمين وخداعهم. فكأنّ هذا الاقتران يحمل البشرى للمسلم بأن لا يمنعه عدم الوقوف على حقيقة باطنهم من الإقدام على مسالمتهم، والتوكل على الله تعالى في إجراء السلم معهم، فإنه سبحانه هو من يتصف بالسمع المطلق، والعلم المطلق، فلا يخفى عليه شيء من حالهم إن أرادوا أن ينقضوا العهد والميثاق. إنّ الاقتران في الآية الكريمة يمثل الدرع الواقى للمسلم من كيد الخائنين، حين يستشعر معية الله له في سمعه وعلمه، فأقواله وأقوال خصمه، وحاله وحال خصمه لا يخفى على الله سبحانه ظاهراً ولا باطناً، وكأنّه يحمل مع البشرى تحذيراً لكل أحد من أن ينقض عهد السلم وميثاقه.

وهكذا، يظهر بجلاء وقوع هذا الاقتران وارتباطه بحدث واقعي منجز، يقف فيه المسلمون أمام قضية لا يعلمون فيها حقيقة ما تؤول إليه نتائجها. وكأنّ ختمها بهذين الاسمين هو نوع من الضمان والتطمين لقلوب المؤمنين.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٠، ص ٥٩.

٦. في سياق عدم الإكراه في الدين:

حَثَّ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ نَشْراً لِلْحَقِّ وَالْفُضَيْلَةِ، «وَشُرْعَ لِتَأْمِينِ الدَّعْوَةِ وَلِكَفِّ شَرِّ الْكَافِرِينَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، لِكَيْلَا يُرْغَزُوا ضَعِيفُهُمْ قَبْلَ أَنْ تَتِمَّكَنَ الْهُدَايَةُ مِنْ قَلْبِهِ، وَيَقْهَرُوا قَوِيَّهُمْ بِفِتْنَتِهِ عَنْ دِينِهِ»^(١)، ومنع إكراه الناس على اعتناق هذا الدين، لوضوح دلائله، وظهور حقائقه، فهو لا يحشر في قلوب الناس حشراً، ولكن القلوب تتفتح له وتقبل عليه بنفسها، وقد نزل قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٥٦ في غزوة بني النضير إذ أراد بعض الصحابة إجبار أولادهم اليهوديين أن يسلموا ولا يكونوا مع بني النضير في جلائهم^(٢). فنهى الله تعالى عن إكراههم على اعتناق الإسلام بعدما توضّحت حقائقه وهداياته.

وقد ورد مخبراً عن الله بأنه سميع عليم؛ للدلالة على كمال السمع والعلم الإلهي بمن يؤمن ومن يكفر، خاصّة وأنّ القلب هو محل الإيمان والكفر. فسمع الله وعلمه كاملان مطلقان، وهو ما يجعل العبد أكثر رغبة ورهبة. وأكثر يقظة وحذراً، فالله مطلع على نطقه إن نطق لسانه، وإن أضمر أو أسر قلبه وجنانه. قال ابن عطية: «لما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده القلب، حسن في الصفات سميع من أجل النطق، وعلیم من أجل المعتقد»^(٣). ووافق أبو حيان في البحر المحيط^(٤).

كذلك، فإنّ هذا الاقتران قد ارتبط بحدث واقعي متكرر، ينفي الإكراه في الدين، ويرغب في الكفر بالطاغوت والإيمان بالله الواحد، فمن فعل ذلك فقد استمسك بحبل النجاة والأمان، وختم الآية بهذين الاسمين يعطي ضماناً وطمأنينة للعبد بأن الله يسمعه ويعلم حاله، فكانها كالبشرى تدفعه إلى الإقبال على الله تعالى بكل ثقة ويقين.

والخلاصة أنّ هذا الاقتران لم يقتصر على كونه ثنائياً، بل جاء ثلاثياً معرفاً بالله

(١) رضا، تفسير المنار، ج ٣، ص ٣٣.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ٥، ص ٤٠٧، وانظر: تفسير المنار، ج ٣، ص ٣١.

(٣) عبد الحق بن غالب، ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، تحقيق: عبد السلام محمد، (بيروت، دار الكتب

العلمية، ١٤١٣هـ)، ج ١، ص ٣٣٩.

(٤) أبو حيان، البحر المحيط، ج ٢، ص ٦١٨.

سبحانه وتعالى. حيث جمع في خمس آيات أسماء: الله، السميع، العليم، وفي الآية السادسة ذكر الضمير «هو» الذي يعود على اسم الجلالة، إضافة إلى السميع العليم. وسرّ ذلك - والله أعلم - أنّ موضوع القتال في سبيل الله يمتاز بحساسية بالغة من حيث وقعه وأثره على قلوب المقاتلين، فهو من أعظم الأعمال وأجلّها عند الله تعالى انتصاراً لدينه وإعلاءً لكلمته من جهة، وما يترتب عليه من الشهادة في سبيل الله والفوز بالجنة من جهة أخرى، ونفس المقاتل تتوق إلى النصر أو الشهادة. فالمناسبة - إذن - قوية جداً بين هذا الاقتران وبين موضوع القتال في سبيل الله، إذ الألسنة تلهج بذكر الله تعالى، متضرّعة إليه، راجية النصر من عنده، وهي أحوج إلى من يسمع دعاءها ويعلم حالها، فتتنزل آياته بنصر دينه، وتثبت المؤمنين.

المبحث الخامس

ورود اسم الله «السميع» واسمه «العليم» مقترنين في سياق الأخلاق والتشريع

ورد هذا الاقتران في سياق سلسلة من الأخلاقيات والتشريعات والمبادئ الكبرى التي تسهم في تشكيل تصور عقدي صحيح راسخ، مخبراً عن الله جلّ جلاله أنه سميع عليم، ومرتبطة بحدث واقعي، فتختم بصفتي السمع والعلم كنوع رقابة وضمان على إنفاذ ذلك التشريع، وكأنها تقول للعبد: إنّ الله حاضر معك بسمعه وعلمه، يسمع نطقك إن نطقت، وقولك إن تكلمت، عالم بنيتك وقصدك، وما تخفي في نفسك، يعلم حقيقة أمرك ظاهراً وباطناً. وتفصيل ذلك كما يأتي:

١. في سياق الوقوف عند مرجعية الوحي قرآنا وسنة:

«خَصَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دُونَ أُمَّتِهِ بِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّقَدُّمُ بَيْنَ يَدَيْهِ - أَيْ سَبْقُهُ بِالْإِقْتِرَاحِ عَلَيْهِ -؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُسَدَّدٌ بِالْوَحْيِ، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانفَعُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات: ١) ^(١) بل إنه لا يجوز التقدم بين يدي الله ورسوله، أي: على كتاب الله وسنة رسوله بقول أو اقتراح أو حكم أو غير ذلك مما يتجاوز فيه مرجعية الوحي.

ومعنى الآية عند القرطبي: «لا تقدّموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله وقول رسوله وفعله

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية، (الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٠٤هـ) ج ٢، ص ٢٦٨.

فيما سبيله أن تأخذه عنه من أمر الدين والدنيا»^(١). وذكر ابن العربي أَنَّ الآيةَ أَصْلٌ فِي تَرْكِ التَّعَرُّضِ لِأَقْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِجَابِ اتِّبَاعِهِ، وَالْاِقْتِدَاءِ بِهِ^(٢). فالتشريع في مختلف ميادينهِ وأبوابهِ هو شأنُ إلهي يوحى الله به إلى نبيِّهِ ﷺ فهو تشريع خالص من الهوى وحفظ النفس ورغباتها بخلاف ما اتصفت به تشريعات البشر وقوانينهم؛ ولذلك يحرم على الأمة وحكوماتها ابتداء أحكام تسري في الناس تقدِّمها على ما أوحى به الله تعالى إلى نبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وقد صَدَّرت الآيةُ بَياءَ النداء، ووصفتهم بالإيمان، كما قال أبو السعود: «لتنبيهِ المخاطبينَ عَلَى أَنَّ مَا فِي حِيزِهِ أَمْرٌ خَطِيرٌ يَسْتَدْعِي مَزِيدَ اعْتِنَائِهِمْ بِشَأْنِهِ وَفِرْطَ اهْتِمَامِهِمْ بِتَلَقِّيهِ وَمِرَاعَاتِهِ، وَوَصَفَهُمْ بِالْإِيمَانِ لَتَنْشِيطِهِمُ وَالْإِيذَانَ بِأَنَّهُ دَاعٍ إِلَى الْمَحَافَظَةِ عَلَيْهِ وَوَاظِعٌ عَنِ الْإِخْلَالِ بِهِ»^(٣)؛ مما يعني أَنَّ تفضيل تشريع بشري عليه مؤذناً بنفي الإيمان عن صاحبه. وجاء الاقتران - «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» - معللاً ومؤكداً أَنَّ الله لا يخفى عليه من مواقفكم إزاء ما شرع لكم، لا ظاهراً في القول، ولا باطناً في القلب، فحالكم مع ما شرع لكم على لسان نبيهِ واضح بَيِّن. وكأنها تحمل تهديداً - وبذلك قال ابن عاشور^(٤) - لمن أضمر الكراهية أو عدم الرضا لهذا التشريع الكامل حيث اقترن النهي بالفصلة التي تضمنت اسم الكمال والجلال «الله». وهذه الأسماء تشعر العبد بدوام مراقبة الله تعالى، وكأنَّ هذه الأسماء هي ما يتوجَّه إلى باطن الإنسان بالتهذيب والتربية والإصلاح. وكأنَّها تشريع للقلوب والبواطن.

٢. في سياق تشريع الزكاة أو الصدقة والموقف منهما:

ورد الاقتران بين الاسمين الجليلين في سياق تشريع الزكاة أو الصدقة، كما قال تعالى: ﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالُهُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٣) والمقصود بها الزكاة على قول بعض العلماء، فقد استظهر الجصاص وابن العربي أَنَّ المقصود بها صدقة الفرض، أي: الزكاة، قال الجصاص: والصحيح أنها الزكوات

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦، ص ٣٠٠.

(٢) أبو بكر محمد بن عبد الله، ابن العربي، أحكام القرآن (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤ هـ)، ج ٤، ص ١٤٥.

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج ٨، ص ١١٥.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص ٢١٩.

المفروضات^(١). وقيل هو مخصوص بمن نزلت فيهم الآية^(٢). وإيراد اسم الجلالة في هذا الاقتران يوحي بكمال التشريع وكمال الإحاطة بشؤون الخلق. فهذا المؤمن المؤدّي للزكاة، أو هذا التائب من ذنبه بتخلّفه عن غزوة تبوك، يحتاج إلى أن يغفر الله ذنبه بقبول صدقته، أو بقبول توبته. وبما أنّ المال شقيق الروح، وبما أنّ المال حبيب إلى قلب الإنسان، ونظراً لما يرافق إخراجها من مشاقّ نفسية، فإنّ العبد المقبل على هذه الطاعة بهمة عالية، هو أحوج ما يكون إلى أن يجيب الله دعاءه ويعلم حاله وإخلاصه. فجاء الأمر إلى رسول الله ﷺ أن يصلي عليهم، أي: يدعو الله لهم، ففي دعائه لهم سكينة وطمأنينة. قال النسفي: «سميع لدعائك أو سميع لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم «عَلِيمٌ» بما في ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم»^(٣). وأكد صاحب المنار هذا المعنى بقوله: «﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي: سَمِيعٌ لِدُعَائِكَ سَمَاعَ قَبُولٍ وَإِجَابَةٍ، عَلِيمٌ بِمَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْمَصْلَحَةِ، فَالْمَرَادُ مِنَ السَّمَاعِ وَالْعِلْمِ لَزِمُهُمَا. وَسَمِيعٌ لَاعْتِرَافِهِمْ بِذُنُوبِهِمْ، عَلِيمٌ بِنَدَمِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ مِنْهَا، وَبِإِخْلَاصِهِمْ فِي صَدَقَتِهِمْ وَطِيبِ أَنْفُسِهِمْ بِهَا، فَهُوَ الَّذِي يُنَبِّئُهُمْ عَلَيْهَا، فَجُمْلَةُ «إِنَّ صَلَاتَكَ» تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ بِالدُّعَاءِ، وَتَذْيِيلٌ بِالتَّذْكِيرِ بِسَمْعِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ إِشْعَارًا بِقَبُولِ الدُّعَاءِ، وَقَبُولِ الطَّاعَاتِ وَالْجَزَاءِ عَلَيْهَا»^(٤).

وفي الاقتران كذلك، تحذير لأولئك الذين يدفعون الزكاة والصدقة رياءً وسمعة، أو يتظاهرون بالتوبة مكرًا وخديعة أنّ الله سميع لأقوالهم ما ظهر منها على الناس وما خفي عنهم، عليم بريائهم ومقاصدهم لا يخفى على الله منها شيء.

ويلاحظ أنّ هذا الاقتران يقع في القرآن مضطرباً في خطاب الله تعالى حين يكون الأمر المتحدّث عنه خفياً على الناس لا يحيط به إلا ربّ العالمين. وبما أنّ هذا الموقف يستدعي أمرين: نطقاً ظاهراً، ونيةً باطنة ناسبه إيراد هذين الاسمين الكريمين. وثمرة ذلك الاستقامة في السرّ والعلانية.

(١) انظر: أحمد بن علي الرازي، المعروف بالجصاص، أحكام القرآن، تحقيق: محمد قمحاوي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥ هـ) ج ٤، ص ٣٥٦، وانظر: ابن العربي، أحكام القرآن، ج ٢، ص ٥٧٩.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٨، ص ٢٤٤.

(٣) أبو البركات، عبد الله بن أحمد النسفي، مدارك التنزيل، تحقيق: مروان الشعار (بيروت، دار النفائس، ٢٠٠٥) ج ٢، ص ٢٠٦.

(٤) رضا، تفسير المنار، ج ١١، ص ٢١.

وورد هذا الاقتران - كذلك - في سياق الحديث عن موقف المنافقين من الزكاة أو الصدقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمُ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة) لقد حرص المنافقون من الأعراب على معاداة دين الله ورسوله حتى فيما فرض الله عليهم من زكوات وصدقات تطهر بها نفوسهم، فقد كانوا ينظرون إليها على أنها غرم لا وجه له، ولا ينتفعون منها بشيء، بل كانوا يتحينون مصائب الدهر أن تحل بالمسلمين فتقضي عليهم، فيتخلصون من الإنفاق؛ لذلك جاءت فاصلة الآية التي اقترن فيها اسم السميع بالعليم؛ لتدلل على إحاطة الله بكل قول ظاهر أو نية باطنة إزاء هذه الصدقات، بل إزاء المسلمين أنفسهم، قال في الظلال: «والسمع والعلم يتناسبان هنا مع جوّ التربص بالسوء من أعداء الجماعة المسلمة، والنفاق الذي تحتويه جوانحهم، وتخفيه ظواهرهم، والله سميع لما يقولون عليم بما يظهرون وما يكتُمون»^(١).

لقد وصل بهم الأمر إلى أن يكون خلاصهم من أمة، وتربصهم بها أحب إليهم من الالتزام بهدي الله في إخراج بعض مالهم، وهو شعور خطير يبعث عليه الكفر والنفاق، ويفرض واقعاً مشحوناً بالحق والكراهية، فكان تحصين المسلمين من تلك الأحقاد وآثارها مطلباً ضرورياً تحقق في مجيء الاقتران على هذا النحو، قال الشعراوي: «فهم - المنافقون - محاصرون بعلم الله وسمعه»^(٢) وفي ذلك تبيّن لهم من تحقيق مطالبهم على الصورة التي يرغبون فيها النيل من هذا الدين أو الإيقاع باتباعه في المهالك.

٣. في سياق تشريع الوصية:

وقع الاقتران مخبراً مؤكداً أنّ الله سميع عليم، في سياق يتحدث عن الوصية للوالدين والأقربين، في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٨٠) فالوصية تشريع رسخه القرآن الكريم، وحقّق فيه العدالة الاجتماعية بين الورثة والأقارب تطبيقاً للنفوس ونزاعاً للأحقاد، ثمّ قال بعدها محدّراً أولئك الذي يعمدون من الورثة والأقارب إلى تغيير الوصية وتبديلها أو التلاعب فيها أو إخفاءها، بقوله: ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ»

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، بيروت، دار الشروق، ج ٤، ص ٦٧.

(٢) الشعراوي، خواطري حول القرآن، ص ٣٧٠٤.

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ١٨١﴾ وجعل الطبري الخطاب للموصي نفسه فقال: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لَوْصِيَّتُكُمْ الَّتِي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَوْصُوا بِهَا لِأَبَائِكُمْ وَأُمَّهَاتِكُمْ وَأَقْرَبَائِكُمْ حِينَ تَوْصُونَ بِهَا، أَتَعْدِلُونَ فِيهَا عَلَى مَا أَدْنَتْ لَكُمْ مِنْ فِعْلٍ ذَلِكَ بِالْمَعْرُوفِ، أَمْ تَحِيفُونَ فَتَمِيلُونَ عَنِ الْحَقِّ وَتَجُورُونَ عَنِ الْقُصْدِ؛ عَلِيمٌ بِمَا تُخْفِيهِ صُدُورُكُمْ مِنَ الْمِيلِ إِلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، أَمْ الْجَوْرُ وَالْحَيْفُ^(١). والخطاب صالح لكل من يصلح للخطاب من موص أو وارث أو موصى له.

وبما أَنَّ الوصية تشريع يحتاج إلى التزام وفيها جزء ظاهر قد يكون نطقاً بها أو إشهاداً عليها، وجزء باطن لا يطلع عليه إلا الله سبحانه، ختم الآية بهذا الآية بهذين الاسمين ليشير إلى كمال سمعه وكمال علمه، ضماناً لإقامتها على وجهها، وتحذيراً من العبث بها، وعدم مراعاة قصد الشارع فيها؛ وذلك مما يستدعي صفتي السمع والعلم فهما أنسب ما يكون إلى هذا الجو التشريعي.

٤. في سياق تشريع الأيمان:

كذلك، أخبر عن الله تعالى بأنه سميع عليم في آية تضمنت نهى المؤمنين أن يحلفوا بالله على منع معروف أو حجب خير وإحسان أو إصلاح بين الناس متخذين اسم الله ذريعة تحول بينهم وبين ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٢٤ أي: «لَا تَجْعَلُوا الْحَلْفَ بِاللَّهِ حُجَّةً لَكُمْ فِي تَرْكِ فِعْلِ الْخَيْرِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ النَّاسِ»^(٢).

قال أبو حيان: «ختم هذه الآية بهاتين الصفتين؛ لأنه تقدم ما يتعلق بهما، فالذي يتعلق بالسمع الحلف؛ لأنه من المسموعات، والذي يتعلق بالعلم هو إرادة البر والتقوى والإصلاح إذ هو شيء محله القلب، فهو من المعلومات، فجاءت هاتان الصفتان منتظمتين للعلة والمعلول، وجاءتا على ترتيب ما سبق من تقديم السمع على العلم، كما قدّم الحلف على الإرادة»^(٣).

وذلك يقتضي «أَنْ يَرَأَوْهُ وَيَتَذَكَّرُوا عِنْدَ دَاعِيَةِ كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ أَنَّهُ سَمِيعٌ لِأَقْوَالِكُمْ عَلِيمٌ بِأَفْعَالِكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَقْفُونَ عِنْدَ حُدُودِ هِدَايَتِهِ لَكُمْ فَتَكُونُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ، وَإِلَّا كُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

(١) الطبري، جامع البيان، ج ٣، ص ٣٩٩، وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢، ص ١٥١.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ٤، ص ٤٢٤.

(٣) أبو حيان، البحر المحيط، ج ٢، ص ١٨٩-١٩٠.

هَذَا الْخَتْمُ لِلآيَةِ يَتَضَمَّنُ الْوَعِيدَ عَلَى كَثْرَةِ الْحَلْفِ، فَإِذَا دَخَلَ فِيهِ مَا يَجْرِي فِي الْكَلَامِ مِنْ قَصْدٍ وَرَوِيَّةٍ... كان الحرج عظيماً»^(١).

وكما تضمن هذا الاقتران تهديداً ووعيداً، كذلك تضمن ترغيباً ووعداً من الله سبحانه أنه لا يضيع أجر من رغب بعمله ونيته وجه الله تعالى، فالله تعالى يسمع كلامه ودعائه، ويعلم نيته وإخلاصه.

٥. في سياق تشريع الطلاق:

كذلك، وقع الإخبار عن الله بأنه سميع عليم في سياق الحديث عن الطلاق في قوله تعالى: ﴿وَأِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٧) وقد تساءل العلماء عن وقوع هذين الاسمين مقترنين في فاصلة الآية، لما أنَّ العزم على الطلاق معقود على النية فما مناسبتها لاسمه السميع؟ أجاب الزمخشري عن ذلك بقوله: «فإن قلت: ما تقول في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وعزمهم الطلاق بما يعلم ولا يسمع؟ قلت: الغالب أنَّ العازم للطلاق وترك الفيئة والضرار، لا يخلو من مقارنة ودمدمة، ولا بدَّ له من أن يحدث نفسه ويناجيها بذلك، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله كما يسمع وسوسة الشيطان»^(٢)، وهي مناسبة بعيدة، فحديث النفس ممَّا هو مرتبط بالنية والقلب وهو شيء باطن يتصل بالعلم لا بالسمع.

ولعلَّ ما ذكره أبو حيان أوضح منه بياناً للمناسبة، فقال: «وجاءت هاتان الصفتان باعتبار الشرط وجوابه، إذ قدرناه: فليوقعوه، أي: الطلاق، فجاء: سميع، باعتبار إيقاع الطلاق؛ لأنه من باب المسموعات، وهو جواب الشرط. وجاء: عليم، باعتبار العزم على الطلاق؛ لأنَّه من باب النيات، وهو الشرط، ولا تدرك النيات إلا بالعلم»^(٣).

والتفت القشيري إلى ملاحظة دقيقة في مناسبة السمع فقال: «إنَّ ملَّ حق صحبتها، وأكَّد العزم على مفارقتها فإنَّ الله مطلع على حاله وسرِّه، فإنَّ بدا له باد من ندم فلا يلبس بأركان الطلاق فإنَّ الله سبحانه عليم أنه طلقها. ولما كان الفراق شديداً عزَّى المرأة بأن قال: إنه «سَمِيعٌ» أي: سمعنا موحش تلك القالة، فهذا تعزية لها من الحق سبحانه»^(٤). وتسلية لها عما

(١) رضا، تفسير المنار، ج ٢، ص ٢٩١-٢٩٢.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ٢٩٨.

(٣) أبو حيان، البحر المحيط، ج ٢، ص ١٩٤.

(٤) عبد الكريم بن هوازن القشيري، لطائف الإشارات، تعليق: عبد اللطيف عبد الرحمن، (بيروت، دار=

أصابها من ألم فراق الزوجية، فباطنها وظاهرها لا يخفى على الله تعالى. ويقال في هذه الاقتران ما قيل في سابقه من أنه وعيد وتهديد للزوج إن هو تجاوز حدود ما أنزل الله تعالى في حق الزوجة، وهو وعيد للزوجة كذلك إن هي دفعت الزوج واضطرتته إلى الوصول إلى الطلاق. وهو ترغيب ووعد بأن الله تعالى سيفني كلاً من سعته. فالأقوال الظاهرة والنوايا الباطنة لا يخفى منها على الله شيء، فهو صاحب السمع المطلق، والعلم المطلق.

٦. في سياق تشريع أحكام العفاف والستر:

وقع الإخبار عن الله تعالى بأنه سميع عليم، في آية ذات صلة بأحكام العفاف والستر، فقد شرع الله تعالى للمرأة الحجاب وإخفاء زينتها وعدم إبدائها إلا أمام زوج أو ذي محرم، أو طفل غير مميز، أو نظيراتها من النساء إن كنّ يلتزمْنَ الأدب والعفة فلا يحدثن بما يرين، واستثنى الله تعالى في هذه الآية القواعد من النساء فقال سبحانه في حقهن: ﴿وَأَلْقَوْهُ مِنْ آلِ نِسَاءِ الَّذِينَ لَا يُرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٠) والمرأة القاعد، هي التي قعدت عن الولد من الكبر فلا تحيض ولا تلد، يقول الطبري: «اللاتي قد يئسن من البعولة، فلا يطمعن في الأزواج» ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾، يقول: فليس عليهن حرج ولا إثم أن يضعن ثيابهن، يعني جلابيبهن، وهي القناع الذي يكون فوق الخمار، والرداء الذي يكون فوق الثياب، لا حرج عليهن أن يضعن ذلك عند المحارم من الرجال، وغير المحارم من الغرباء غير متبرجات بزينة^(١).

قال ابن عاشور: «وجملة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مسوقة مساق التذييل للتحذير من التوسع في الرخصة أو جعلها ذريعة لما لا يحمد شرعاً، فوصف «السميع» تذكير بأنه يسمع ما تحدثن به أنفسهن من المقاصد، ووصف «العليم» تذكير بأنه يعلم أحوال وضعهن الثياب وتبرجهن ونحوها»^(٢).

= الكتب العلمية، ٢٠٠٧م ج ١، ص ١٠٦.

(١) انظر: الطبري، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٩، ص ٢١٦.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٨، ص ٢٩٩.

وفاصلة الآية التي وقع فيها الاقتران تحمل أكثر من دلالة، لما أنَّ مضمون الآية مرتبط بفعلين ظاهر وباطن، قولي وقلبي، والله سبحانه متصف بالسمع المطلق والعلم المطلق، يحذّر تلك القاعد من كلام في الخفاء تقوله، أو نية سيئة تبطنها، لما أنَّ النساء يحبين الظهور بمظهر المرأة المطلوبة المرغوبة على الدوام، وقليل منهن من يعترف بكبر سنهن أو عجزهن؛ لذلك أمرهن بالعفة، فقال سبحانه: «وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَهُمْ» من تلك الرعونة والتصابي. وهو في الوقت نفسه ترغيب بالطاعة ووعد عليها بالأجر والثواب لمن التزم منهن بالعفة قولاً وعملاً، وظاهراً وباطناً، سميع عليم بكل أقوالهن وأفعالهن الظاهرة والباطنة.

المبحث السادس

ورود اسم الله «السميع» واسمه «العليم»

مقترنين في سياق التحذير من نزغ الشيطان وخطواته

وقع الإخبار عن الله بأنه سميع عليم في ثلاث آيات: ثنتان مكّيتان، وواحدة مدنية، وردت كلها في سياق التحذير من وساوس الشيطان، أو اتباع خطواته المؤدية إلى سخط الله وغضبه، وتفصيل ذلك:

١. في سياق التحذير من الشيطان باطناً:

أرشد الحق سبحانه إلى ضرورة الحذر مما ينبعث في نفس الإنسان من وساوس شيطانية إزاء أعمال كبيرة، وأخلاق فاضلة نبيلة في آيتين كريمتين^(١)، إحداها وردت في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَغُنَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف: ٢٠٠)، وهذه الآية سبقت بأية شديدة الصلة بها توجب العفو والأمر بالمعروف وهي قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩) وكأنّ الإنسان سيتعرض إزاء هذه الأعمال والأخلاق إلى نوع من استفزاز وتجاهل وتعال من الآخرين، خاصة حين يأمر بالمعروف. فدعاه إلى الاستعاذة التي تمثل اللجوء إلى الله تعالى، والفرار إليه من جهل

(١) وهناك آية ثالثة سبقها الحث على مقابلة السيئة بالحسنة، هي قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (المؤمنون: ٩٦-٩٨) لكن لم يرد في فاصلتها اقتران بين أسماء الله الحسنى.

الجاهلين وتعالى المستكبرين، وإعراض المعرضين، ونظراً لما يحدثه هذا الاستقراز من آثار نفسية سيئة، وردود أفعال غاضبة من المؤمن - ختم فاصلة الآية ببيان اسمين من أسمائه الحسنی، هما: السميع والعليم؛ ليتناسب ذلك مع هذه الحالة النفسية للمؤمن، فيمثل له الاعتصام بهما الأمل والسلوى، ويدفع عنه اليأس والقنوط، فالله تعالى مع العبد حاضر بسمعه، يسمع ما يقول وما يقال له، وحاضر بعلمه يعلم غاياته ومقاصده، فإذا أيقن العبد بذلك صبر واطمأن!.

ذكر البقاعي أن توجيه الخطاب بالاستعاذة إلى رسول الله ليكون أدعى لهم إلى القبول، وأجدر باشتداد الخوف المقتضي للفرار المنذر للنجاة^(١).

وبين الرازي أن اقتران صفة السمع بالعلم يدل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد إلا إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة، فكأنه تعالى قال: اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإني سميع، واستحضر معاني الاستعاذة بعقلك وقلبك فإني عليم بما في ضميرك، وفي الحقيقة القول اللساني بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والأثر^(٢).

وأما الآية الأخرى فوردت في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت: ٣٦)، وهي شبيهة بالآية السابقة فقد تقدمها ما يوجب الأمر بالمعروف ومواجهة الإساءة بالإحسان، والتحلي بكمال الصبر والإيمان، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤)

قال ابن عاشور في بيان المناسبة بين الآيتين: «بعد أن أرشد إلى ما هو عون على تحصيل هذا الخلق المأمور به وهو دفع السيئة بالتي هي أحسن، وبعد أن شرحت فائدة العمل بها بقوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ صرف العنان هنا إلى التحذير من عوائقها التي تجتمع كثرتها في حقيقة نزغ الشيطان، فأمر بأنه إن وجد في نفسه خواطر تصرفه عن ذلك، وتدعوه إلى دفع السيئة بمثلها، فإن ذلك نزغ من الشيطان دواؤه أن تستعيز

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج ٣، ص ١٧٩.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١٥، ص ٨٠.

بأنه منه فقد ضمن الله له أن يعيذه إذا استعاذه؛ لأنه أمره بذلك»^(١).
وتتحدث الآيتان كلتاهما عما يعتري الإنسان من أخطار محتملة منبعثة من نفسه الأمارة،
إزاء التزامه بهدي الله من عفو أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، أو مقابلة للسيئة بالحسنة،
فيجنىح إلى الإساءة، فيحذر القرآن من هذا التغير على نفسه الذي عبر عنه بنزغ الشيطان،
والنزغ كما قال الأصفهاني: دخول في أمر لإفساده^(٢). قال ابن منظور: «شبه الوخز والطعن،
ونَزَغَهُ بكلمة نَزَغاً نَحْسَهُ وطَعَنَ فيه»^(٣). ونقل القرطبي عن الزجاج قوله: «النزغ أدنى حركة
تكون، ومن الشيطان أدنى وسوسة»^(٤). وقال ابن عاشور: «والنزغ: أصله الطعن السريع.
واستعمل هنا في الإفساد السريع الأثر»^(٥).

« وإطلاق النزغ هنا على وسوسة الشيطان استعارة: شبه حدوث الوسوسة الشيطانية
في النفس بنزغ الإبرة ونحوها في الجسم بجامع التأثير الخفي وشاعت هذه الاستعارة بعد
نزول القرآن حتى صارت كالحقيقة»^(٦).

ذكر الرازي في قوله: «إن الله هو السميع العليم» وجهين^(٧):

الأول: أن الغرض من الاستعاذة الاحتراز من شر الوسوسة ومعلوم أن الوسوسة
كأنها حروف خفية في قلب الإنسان، ولا يطلع عليها أحد، فكان العبد يقول: يا من هو على
هذه الصفة التي يسمع بها كل مسموع، ويعلم كل سر خفي أنت تسمع وسوسة الشيطان
وتعلم غرضه فيها، وأنت القادر على دفعها عني، فادفعها عني بفضلك، فلهذا السبب كان
ذكر السميع العليم أولى بهذا الموضع من سائر الأذكار.

الثاني: أنه إنما تعين هذا الذكر بهذا الموضع اقتداءً بلفظ القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا
يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف: ٢٠٠) وقال في حم

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٤، ص ٢٩٦.

(٢) الحسين بن أحمد المعروف بالراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، تحقيق: سيد كيلاني (بيروت، دار
الكتب العلمية، بلا تاريخ) ص ٤٨٨.

(٣) جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، (بيروت، دار صادر، بلا تاريخ) ج ٤، ص ٤٥٤.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٧، ص ٣٤٧.

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٥، ص ١٣٢.

(٦) المرجع السابق نفسه، ج ٩، ص ٢٢٩.

(٧) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١، ص ٦٢.

السجدة: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت: ٣٦).

وسرّ وقوع الاقتران في هذه الآية بأسلوب القصر دون الآية الأولى أن آية (الأعراف) وردت فيها الصفتان «سميع عليم» مورداً لم يتقدمه ما يوهم صلاحية شيء من ذلك لغيره تعالى مما عبّده من دونه مما قصد هنا، ولا ذكر دعوى شيء من ذلك من مدّع فيستدعي ذلك التوهم مفهوماً ينفية، فجاء على ما يجب. أما آية فصلت فتقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَرَأَى الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾. فحصل من هذا أن مضليهم إنما كانوا من عالم الإنس والجن، وكلا الصنفين موصوف بالسمع والبصر وممن ينسب إليه علم بخلاف المقدم ذكره في الأعراف، فلما تقدم في سورة فصلت من يظن منه الغنى ويمكن منه أن يسمع ويبصر ويعلم ناسبه التعريف في الصفة؛ ليعطى بالمفهوم نفى ذلك عن غير الموصوف بهما تعالى، ثم أكد ذلك بضمير الفصل المقتضى التخصيص^(١).

ولما كان السياق في الآيتين ينطوي على جانب ظاهر وهو النطق، وآخر باطن، ومحلّه القلب والنية، كان السمع والعلم هما الأنسب في الورد في فاصلة الآيتين، وكما تضمنتا ترغيباً للعبد بأنّ حاله لا يخفى على الله ظاهراً وباطناً. تضمنتا ترهيباً يحذره من الانزلاق في مستنقع اليأس والقنوط.

٢. في سياق التحذير من الشيطان ظاهراً:

وقع الاقتران كذلك مخبراً عن كون الله سميعاً عليمًا في آية وردت تنهى وتحذر من اتباع خطوات الشيطان، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٢١) وقد سبق الآية حديث عن بعض أحكام العفاف والستر متمثلة في التحذير من قذف المحصنات وحبّ إشاعة الفاحشة في المؤمنين. وإذا كانت الآيتان السابقتان قد حذرتا من نزغ الشيطان، وهو فعل محله القلب فتعكس آثاره على السلوك، فإنّ هذه الآية تحذر من اتباع خطوات الشيطان في الظاهر بسلوك ما فيه معصية

(١) انظر: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل، تحقيق: سعيد الفلاح، (بيروت، دار الكتب العلمية) ج ١، ص ٣١٢-٣١٣.

تغضب الله تعالى. سواء في قذف المحصنات أو إشاعة الفاحشة والرذيلة بين الناس. ولما كان سلوك خطوات الشيطان يعني اتباعه، فإنّ هذا الاتباع يشمل كل قول منكر بذيء، وكل فعل فاحش رديء، فإنّ الله تعالى يسمع كل قول، ويعلم كل فعل ونية. فجاءت الفاصلة محذرة من سلوك ما فيه معصية لله قولاً وفعلاً، ظاهراً وباطناً. وهي كذلك، بشرى لمن استجاب لله تعالى وكفّ عن إتباع تلك الخطوات، وهي مشعرة برقابة الله تعالى للعبد على الدوام، ومن شأن ذلك أن يدفعه إلى الاستقامة على سبيل الطهر والعفاف. قال الرازي: «قوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فالمراد أنه يسمع أقوالكم في القذف وأقوالكم في إثبات البراءة، عليم بما في قلوبكم من محبة إشاعة الفاحشة أو من كراهيتها، وإذا كان كذلك وجب الاحتراز عن معصيته»^(١). وأضاف ابن عاشور أنّ فيها تذكيراً بين الوعد والوعيد، أي: سميع لمن يشيع الفاحشة، عليم بما في نفسه من محبة إشاعتها، وسميع لمن ينكر على ذلك، عليم لما في نفسه من كراهة ذلك، فيجازي كلاً على عمله. وإظهار اسم الجلالة فيه ليكون التذليل مستقلاً بنفسه؛ لأنه مما يجري مجرى المثل»^(٢). أو السنة الجارية، ويقال هذا في كل فاصلة ختمت على هذا النحو.

المبحث السابع

ورود اسم الله «السميع» واسمه «العليم»

مقترنين في سياق السنن الإلهية في الخلق

السنّة الإلهية قانون جار مطرد في نظام الخلق والكون، وهو قانون نافذ لا يقوى أحد على إيقافه أو تعطيله، ويمتاز بالصرامة والعدل، ويمضي في حياة الأمم والمجتمعات والأفراد. وقد ورد هذا الاقتران بين الاسمين الكريمين: السميع والعليم في سياق متنوع من السنن الإلهية المتصلة بالخلق، ونورد هذه السنن على النحو الآتي:

١. في سياق إرسال النبيين والرسل:

بين العلماء أن بعثة الأنبياء سنة إلهية جارية في حياة الناس لهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، قال ابن تيمية: «وكان من سنة الله تبارك وتعالى مواترة الرسل وتعميم

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٢٣، ص ١٦٢.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٨، ص ١٨٨.

الخلق بهم بحيث يبعث في كل أمة رسولا؛ ليقم هداه وحجته»^(١).

وقال البيضاوي: «بين - القرآن - أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها سبباً لهدى من أراد اهتداه، وزيادة لضلال من أراد ضلاله كالغذاء الصالح فإنه ينفع المزاج السوي ويقويه ويضر المنحرف ويفنيه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)^(٢).

وهنا يقع الاقتران بين اسميه السميع والعليم مسبوقين بالضمير الدال على اسمه «الرب» بأسلوب يفيد القصر، كما في قوله تعالى: فقال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الدخان: ٥-٦) تحقيقاً لمعنى هذه السنة الإلهية في إرسال الرسل رحمة من الله بالإنسان على وجه الأرض، وقد تحققت هذه الرحمة في أوسع معانيها في رسالة محمد ﷺ دفعا للعناء الذي يعاني منه البشر في مجالات حياتهم كلها. ويبدو التساؤل حول اقتران هذين الاسمين ملحا فما سر ذلك؟.

بين الرازي: «أن تلك الرحمة وقعت على وفق حاجات المحتاجين؛ لأنه تعالى يسمع تضرعاتهم، ويعلم أنواع حاجاتهم، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ... يعني أن تلك الرحمة كانت رحمة في الحقيقة؛ لأن المحتاجين، إما أن يذكروا بألسنتهم حاجاتهم، وإما أن لا يذكروها، فإن ذكروها فهو تعالى يسمع كلامهم فيعرف حاجاتهم، وإن لم يذكروها فهو تعالى عالم بها فثبت أن كونه سميعاً عليمًا يقتضي أن ينزل رحمته عليهم»^(٣).

ووضح ابن عاشور ذلك بقوله: «جملة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تعليل لجملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: كنا مرسلين رحمة بالناس؛ لأنه علم عبادة المشركين للأصنام، وعلم إغواء أئمة الكفر للأمم، وعلم ضجيج الناس من ظلم قويمهم ضعيفهم، وعلم ما سوى ذلك من أقوالهم، فأرسل الرسل لتقويمهم وإصلاحهم، وعلم أيضاً نوايا الناس وأفعالهم وإفسادهم في الأرض، فأرسل الرسل بالشرائع لكف الناس عن الفساد وإصلاح

(١) أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي الألعي وآخرين (الرياض: دار العاصمة، ١٤١٤هـ) ص ٧٩

(٢) البيضاوي، أنوار التنزيل، ص ٣٩٦.

(٣) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٢٧، ص ٢٠٥.

عقائدهم وأعمالهم»^(١)

وهذه السنة اطرّدت في حياة البشر من لدن آدم - عليه السلام - حتى محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّتُهُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣٣-٣٤) وهو اصطفاء النبوة كما قال الزجاج: «اختارهم للنبوة على عالمي زمانهم»^(٢). وامتدت النبوة في نسلهم وما انقطعت حتى جاءت نبوة محمد ﷺ رحمة للعالمين، فإرسال الله تعالى الأنبياء واحدة من السنن التي استقام بها نظام الحياة الإنسانية. فالنبوة قاسم مشترك في حياة الأمم والمجتمعات، قال أبو زهرة: «بين سبحانه وتعالى وحدة الإنسانية التي ما كان يسوغ معها خلاف إلا ممن ضل سبيل الهداية، ووحدة النبوة والرسالة الإلهية، التي وحدت بها شريعته تعالى، وما كان يسوغ بعد هداية الله تعالى خلاف إلا إذا كان الضلال»^(٣).

لكن ما سرّ أن تختتم الفاصلة التي جمعت اسميه السميع والعليم مع اسم الجلالة بقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؟ قال القفال: هو أنّ الله سميع لأقوال العباد، عليم بضمائرهم وأفعالهم، وإنما يصطفي من خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلًا^(٤). وتبعه أبو زهرة على ذلك فقال: إنها - الفاصلة - إشارة إلى كمال إحاطته، وإلى أنه إذ اصطفى هؤلاء على علم كعلم من يسمع أي: إنه علم دقيق لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء^(٥).

وذكر ابن عاشور: «أنّ الغرض من ذكر هؤلاء تذكير اليهود والنصارى بشدة انتساب أنبيائهم إلى النبي محمد ﷺ، فما كان ينبغي أن يجعلوا موجب القرابة موجب عداوة وتفریق، ومن هنا ظهر موقع قوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع بأقوال بعضكم في بعض هذه الذرية: كقول اليهود في عيسى وأمه، وتكذيبهم وتكذيب اليهود والنصارى لمحمد ﷺ^(٦). وهو تعليل اقترب فيه من كلام الإمام الرازي عند قوله: إنّ اليهود كانوا يقولون: نحن من ولد إبراهيم

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٥، ص ٢٨٢.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٤، ص ٦٢، وانظر: رضا، تفسير المنار، ج ٣، ص ٢٣٧.

(٣) محمد أحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، (بيروت، دار الفكر العربي) ج ٣، ص ١١٩٢.

(٤) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٨، ص ٢١.

(٥) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج ٣، ص ١١٩٦.

(٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣، ص ٣٢١.

ومن آل عمران، فنحن أبناء الله وأحباؤه، والنصارى كانوا يقولون: المسيح ابن الله، وكان بعضهم عالماً بأن هذا الكلام باطل، إلا أنه لتطبيب قلوب العوام بقي مصرّاً عليه، فאלله تعالى كأنه يقول: والله سميع لهذه الأقوال الباطلة منكم، عليم بأغراضكم الفاسدة من هذه الأقوال فيجازيكم عليها، فكان أول الآية بياناً لشرف الأنبياء والرسل، وآخرها تهديداً لهؤلاء الكاذبين الذين يزعمون أنهم مستقرون على أديانهم^(١).

ولعل الأقرب مما سبق أن يقال: إن سياق الآية جاء تعقيباً على سنة إرسال الأنبياء واصطفائهم. ومناسبة الفاصلة أن البشر لما كثرت أُنَاتهم لشدة ظلم بعضهم بعضاً، وتعالّت صرخات الاستغاثة التي ينادي بها حال كل واحد منهم، لاتخاذ البشر بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله تعالى كان الله تعالى خير سميع وخير عليم وخير مجيب لتلك الأُنَات والصرخات، فهو الذي لا يقف سمعه عند حدّ، ولا يخفى عليه من أحول الخلاق شيء، فأرسل الرسل رحمة منه للناس جميعاً. يؤكد ذلك أن الضمير في قوله «إنه هو السميع العليم» عائِد على اسمه «الرب» في قوله: «رحمة من ربك» فأرسل الرسل طريق التربية الإلهية، وهو من مقتضى الربوبية، والله تعالى أعلم.

٢. في سياق الثبات على منهج الهداية:

إذا كان الحديث في السنّة السابقة عن إرسال الرسل وأنه سنّة ثابتة، فإنّ الثبات واقع كذلك فيما جاء به الأنبياء من أصول عامة في التشريعات، والأخلاق، وقد وقع الاقتران بين اسميه السميع والعليم سبقهما الضمير الذي يعود على اسم الجلالة تعقيباً على هذه السنّة العظيمة في التشريع، في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ (الأنعام)

إنّ عناية الله تعالى بالخلق، تظهر مناسبة وقوع الاقتران بين اسميه السميع والعليم مع هذه السنّة الإلهية؛ وذلك أن سمع الله المطلق لمطالب الخلق، وعلم الله المطلق ببواطنهم وما يصلحهم وما يفسدهم، جعل ما شرع لهم من السنن ثابتاً تقوم عليه حياتهم، ولا يستقيم شأنهم إلا في ضوء تلك السنن؛ لأن اضطرابها يجعل نظام الحياة في مأزق خطير، وشرّ

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٨، ص ٢١.

مستطير. ويمثل من ناحية أخرى وعداً ووعداً، وعداً لمن استقام على هذه السنن، ووعداً لمن خرج عليها. ولما كان الموقف إزاء هذه السنن يتجسد قولاً وعملاً اتضح من ذلك أن عملية الخروج عليها هي عملية ممنهجة، ليست عفوية، والآية واردة في سياق التحذير.

ونذكر ابن عاشور: أن السميع هو المطلع على الأقوال. العليم بما في الضمائر، وهذا تعريض بالوعد لمن يسعى لتبديل كلماته، فالسميع العالم بأصوات المخلوقات، التي منها ما توحى به شياطين الإنس والجن، بعضهم إلى بعض، فلا يفوته منها شيء؛ والعالم أيضاً بمن يريد أن يبدل كلمات الله، فلا يخفى عليه ما يخوضون فيه: من تبئيت الكيد والإبطال له. والعليم أعم، أي: العليم بأحوال الخلق، والعليم بمواقع كلماته، ومحالّ تمامها، والمنظم بحكمته لتمامها، والموقت لآجال وقوعها. فذكر هاتين الصفتين هنا: وعيد لمن شملته آيات الذم السابقة، ووعد لمن أمر بالإعراض عنهم وعن افتراءهم، وبالتحاكم معهم إلى الله، والذين يعلمون أن الله أنزل كتابه بالحق^(١).

٣. في سياق أسباب زوال النعم:

من المعلوم أن شكر النعم من السنن الإلهية الفاعلة في حياة الخلق، وهو سبب دوامها وبقائها، وأن كفرها أو الكفر بالمنعم سبحانه هو سبب زوالها وتبدّلها، والله سبحانه لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّكَ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِّعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٥٣)، وهذا يعني أن وصف الله بأنه سميع عليم تحقّق به وقوع تلك السنة الثابتة المضطردة التي تحكم شؤون الخلائق وحياتها. ذكر أبو السعود أن تبديل النعم بسبب أنه تعالى سميع عليم، يسمع ويعلم جميع ما يأتون وما يذرون من الأقوال والأفعال السابقة واللاحقة فيرتب على كل منها ما يليق بها من إبقاء النعمة وتغييرها^(٢).

والخطاب في الآية جاء تعقيباً على ذكر أمم سابقة كفرت بأنعم الله، فبدل الله حالها إلى أسوأ حال، كما قال في الآية التي سبقت هذه الآية، قال تعالى: ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٥٢) كذلك

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٨، ص ٢٢.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج ٤، ص ٢٩.

ما حلّ بقريش بعد عنادها واستكبارها، قال الشيخ محمد رشيد رضا: «إِنَّ مَا يَحْفَظُهُ التَّأْرِيخُ مِنْ وَقَائِعِ الْأُمَمِ مِنْ دَابَّهَا وَعَادَتِهَا فِي الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَالظُّلْمِ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ عِقَابِ اللَّهِ إِيَّاهَا، هُوَ جَارٍ عَلَى سُنَّتِهِ تَعَالَى الْمُطْرَدَةُ فِي الْأُمَمِ، وَلَا يَظْلُمُ تَعَالَى أَحَدًا بِسَلْبِ نِعْمَةٍ، وَلَا إِيقَاعِ نِقْمَةٍ، وَإِنَّمَا عِقَابُهُ لَهُمْ أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ، لِكُفْرِهِمْ وَفَسَادِهِمْ وَظُلْمِهِمْ لِنَفْسِهِمْ - هَذَا هُوَ الْمُطْرَدُ فِي كُلِّ الْأُمَمِ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَنَةِ»^(١).

فالسمع والعلم اقترنا هنا؛ لبيان هذه السنة الإلهية الجارية في حياة الخلق، والمتصلة بحقيقة نفوسهم وخباياها، ذلك أن التغيير يبدأ في القلب ويترجم عنه اللسان قولاً والجوارح فعلاً وعملاً. ومع ذلك قدّم السمع المتعلق بالقول ظاهراً على العلم المتعلق بالقلب وما يتعلق به من نوايا باطنة، ذلك أن تغيير النعم لا يتحقق بمجرد النية الباطنة ما دامت في حيز الكتمان أو الشعور لم تترجم إلى قول أو فعل، فإذا ترجمت إلى قول أو فعل أصبحت ظاهرة شائعة تستوجب التغيير. فكان القول يمثل ظاهرة التواصل بالباطل ونصرته والصبر لأجله، وهو مما يؤذن بزوال النعم وتغييرها.

٤. في سياق الرزق:

الله سبحانه الخالق المالك هو الحاكم في قانون الرزق والمهيمن عليه في هذه الحياة، فلا رازق إلا هو، ولا نافع إلا هو، يرزق من يشاء بغير حساب، وكل مخلوق من إنس أو جنّ أو حيوان، أو طير أو دابة له رزقه الذي كفله الله تعالى، فالرزق سنة إلهية، قال تعالى: ﴿وَكَايْنِ مَنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت: ٦٠). والرزق مكفول لأي دابة فما بالك بالإنسان، وهو أكرم الخلق على الله سبحانه، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه! لذلك تقدّم في الآية ذكر الدابة على ذكر الناس ليبين أن عناية الله تعالى لا تترك من لا عقل له، أفترك العاقل المكرّم الخليفة في الأرض؟

ولما كانت قضية الرزق مؤرقة للإنسان، ولما كان موضوع الرزق هو الشغل الشاغل له، وقع الاقتران هنا طمأنينة وتثبيتاً لكل طالب رزق؛ لئلا يكون حائلاً دون فعل الصالحات، أو الانتصار لهذا الدين، أو الالتزام بما شرع الله تعالى له أو أمره به.

ولما كان الشعور بقضية الرزق رغبة فيه وخوفاً من انقطاعه متغلغلاً في أعماق النفس

(١) رضا، تفسير المنار، ج ١٠، ص ٤١.

ورد الاقتران بين اسميه السميع والعليم ضمناً وأماناً، قال الرازي: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ: سميع إذا طلبتم الرزق، يسمع ويجيب، عليم إن سكتكم، لا تخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم»^(١).

وفي الوقت نفسه يرد هذا الاقتران محذراً من الظن أو التوهم بأن الإنسان هو القادر على رزق نفسه بما أوتي من علم وقوة عقل، فالناس والدواب في هذا مصبوغون بصفة العجز، قال الألويسي: «إن الدواب مع ضعفها وتوكلها، وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله تعالى؛ لأن رزق الكل بأسباب هو عز وجل المسبب لها وحده، فلا تخافوا على معاشكم بالمهاجرة. ولما كان المراد إزالة ما في أوهامهم من الهجرة على أبلغ وجه قيل: يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ دون يرزقكم وإياها، وَهُوَ السَّمِيعُ: البالغ في السمع، فيسمع قولكم هذا. الْعَلِيمُ: البالغ في العلم، فيعلم ما انطوت عليه ضمائركم»^(٢).

٥. في سياق الأجل ورجاء اللقاء:

الأجل قانون سنّه الله تعالى في حياة الأمم والأفراد والمجتمعات، وهو قانون ثابت يحكم نظام الحياة كلها، وشؤون الخلائق كلها. وهو من السنن الفاعلة في نظام الحياة، ارتبطت به حياة الإنسان، بل حياة كل مخلوق، وقد ورد فيه الاقتران بين الاسمين الجليلين بأسلوب القصر بتعريف ركني الجملة، في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت: ٥).

وقد جعل الزمخشري الآية مثلاً للوصول إلى العاقبة، من تلقى ملك الموت، والبعث، والحساب، والجزاء: مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل، وقد اطلع مولاه على ما كان يأتي ويذر، فإما أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضي من أفعاله، أو بضد ذلك لما سخطه منها، فمعنى قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾: من كان يأمل تلك الحال. وأن يلقي فيها الكرامة من الله والبشر فإنَّ أَجَلَ اللَّهِ وهو الموت لآت لا محالة، فليبادر العمل الصالح الذي يصدق رجاءه، ويحقق أمله، ويكتسب به القربة عند الله والزلفى، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ الذي لا

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٢٥، ص ٧٧.

(٢) محمود بن عبد الله الألويسي، روح المعاني، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، ج ٢١، ص ١١.

يخفى عليه شيء مما يقوله عباده ومما يفعلونه، فهو حقيق بالتقوى والخشية^(١).
وعلل الرازي وقوع هذين الاسمين دون غيرهما، أنّ الآية مسبوقة بآيتين تتحدث
إحدهما عن القول والثانية عن الفعل، وأنّ القول يدرك بالسمع، والعمل يدرك بالعلم إن كان
باطناً أو ظاهراً، ولازم ذلك الثواب والعقاب^(٢).

إنّ الآية واقعة في خطاب فريقين من الناس: مؤمن مصدّق يسأل الله تعالى أن يلقاه، وهو
راض عنه. وكافر جاحد مكذب لا يظنّ بوقوع بعث ولا حساب، ولكل قوله الذي يصرح به،
ولكل عمله الذي يقوم به، ومهما كان فإنّ الجامع بين الفريقين هو الأجل، وهو حتم مقضي لا
شكّ فيه، أجل الموت الذي لا يقدر على منعه إنسان. ولما كان المقصود إثابة من يؤمن ومعاقبة
من يعصي، قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلا أحد أسمع منه، ولا أحد أعلم منه سبحانه.
فيثيب ويعاقب كل بحسب قوله وعمله، قال البقاعي: في الآية حثّ على تطهير الظاهر والباطن
في العقد والقول والفعل^(٣). فسنة الأجل مدعاة إلى الانضباط والاستقامة على هدي الله فمآل
الخلق كلهم إلى الله تعالى.

إنّ هذا القانون لا يتم إنفاذه في الخلق إلا بناءً على سمع مطلق وعلم مطلق بأحوالهم،
فإنهاء أجل أحد من الناس لا يتمّ إلا بأمر الله السميع العليم الذي يسمع أقوالهم إزاء الأجل،
ويعلم ما في نياتهم وضمائرهم، فالراجي لقاء الله تعالى موفور التكریم عنده سبحانه إذ
يسمع قوله ويعلم قصده وغايته.

٦. في سياق تجاوز الحد في الخصومة:

من شأن الناس أن يختلفوا ويختصموا، فيكون منهم ظالم، ومنهم مظلوم، ولما كان
المظلوم يبحث عن سبيل لرفع الظلم عنه أباح الله له التظلم، وأن يجهر بظلمه تلافياً لعمل أخطر
قد يقدم عليه، على أن لا يتجاوز الحد إلى ظلم أكبر، قال تعالى: ﴿لَا يُجِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ
أَلْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٨٤)، وورود الآية في سياق الحديث عن
المنافقين يوحي بدلالات ليست حميدة لهؤلاء وأولئك، فذلك من صفاتهم وأخلاقهم، كما ورد

(١) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٤٤٤-٤٤٥.

(٢) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٢٥، ص ٢٨.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج ٥، ص ٥٣٧.

في الحديث قوله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقا أو كانت فيه خصلة من أربعة، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب. وإذا وعد أخلف. وإذا عاهد غدر. وإذا خاصم فجر»^(١) وتقرر في هذا الاقتران الذي ختمت به الآية نوع من العلاج لهذه الظاهرة، وفرض رقابة صارمة بإحاطته التامة سبحانه بأقوالهم الظاهرة، ونياتهم ومقاصدهم الباطنة، يدفع إلى التفكير ومراجعة النفس ومراقبة الله تعالى، قال الرازي: «هو تحذير من التعدي في الجهر المأذون فيه، يعني فليتق الله ولا يقل إلا الحق ولا يقذف مستورا بسوء فإنه يصير عاصيا لله بذلك، وهو تعالى سميع لما يقوله عليم بما يضمرة»^(٢).

وقال في المنار: «لا يَفُوتُ اللهُ تَعَالَى قَوْلٌ مِنْ أَقْوَالِ مَنْ يَجْهَرُ بِالسُّوءِ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ السَّبَبُ الْبَاعِثُ لَهُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَقْوَالِ الْعِبَادِ وَلَا مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَلَا نِيَّاتِهِمْ فِيهِمَا، فَمَنْ كَانَ مَعْذُورًا فِي الْجَهْرِ بِالسُّوءِ الَّذِي لَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ لِضَرَرِهِ وَمَفْسَدَتِهِ فِيهِمْ بِسَبَبِ الظُّلْمِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يُؤَاخِذُهُ وَلَا يُعَاقِبُهُ عَلَى جَهْرِهِ، وَرُبَّمَا أَثَابَهُ عَلَى مَا يَقْصِدُ مِنْ رَفْعِ الضِّيمِ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِرْجَاعِ الظَّالِمِ إِلَى رُشْدِهِ، وَإِرَاحَةِ النَّاسِ مِنْ شَرِّهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُؤَاخِذْ عَلَى ظُلْمِهِ إِيَّاهُ يَزِدَادُ ضَرَاوَةً فِيهِ وَإِصْرَارًا عَلَيْهِ»^(٣). وبناءً على ذلك، فإنه يترتب على مجاوزة الحد في التظلم الوقوع في الظلم، وصاحبه ظالم منبوذ لفعله، ومؤاخذ عليه عند الله تعالى.

وهكذا، يرد الاقتران بين اسميه: السميع والعليم إزاء قوانين إلهية فاعلة في الحياة الإنسانية لضمان إنفاذها وتفعيلها في حياة الخلق.

الخاتمة

وبعد، فقد اقترن اسم الله السميع باسمه العليم في إحدى عشرة آية مكية، وإحدى وعشرين آية مدنية، واطّرد تقديم اسمه السميع على العليم في هذا الاقتران، وورد بصيغة المبالغة مطلقاً، وبأسلوب القصر غالباً لدواع تقتضيها طبيعة السياق من مثل بث الطمأنينة في قلوب العباد. وقد ورد في سياق يتصل بواقع الإنسان الذي حوَصرَ بسمع الله وعلمه، وذلك أن الله سبحانه حاضر بسمعه، يسمع كل قول، عالم بما وراء هذه الأقوال من غايات

(١) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المظالم، باب إذا خاصم فجر، ج ٢، ص ٨٦٨، ح ٢٣٢٧.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١١، ص ٧٤.

(٣) رضا، تفسير المنار، ج ٦، ص ٦.

ومقاصد، وعليه فلا مفرّ للإنسان من هذا الحصار الذي لا يغيب فيه عن مراقبة الله لحظة. وقد ورد متصلاً بواقع الإنسان يهدف تحقيق جملة من المقاصد والغايات، من أبرزها إصلاح الإنسان وبناءه إيمانياً ظاهراً وباطناً، ومن ثم إصلاح شؤون الحياة والمجتمع.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج التي نجملها في النقاط الآتي:

١. ورد هذا الاقتران - في غالبية العظمى - إزاء أحداث وقعت، ومواقف ذات شأن اتخذت، استدعت حضور هذين الاسمين الجليلين: السميع والعليم؛ ليكشف خبايا النفوس وما تنطق به من أقوال، وما تكنه من معتقدات؛ وليجيب دعاء المضطر ودعوة الملهوف؛ ولينزل النصر من عنده على عباده المؤمنين؛ وليحذر من نزغ الشيطان، ويراقب التزام الخلق بتشريع الله وسننه في الوجود. هذه الأحداث المباشرة مرتبطة بالتصور الإيماني الشامل وقضاياها المتعددة، كمرجعية الوحي في الهداية، وإيتاء الزكاة والصدقة، وغير ذلك من الأحكام والتشريعات والسُنن.

٢. وورد في السياق القرآني للتعريف بصفات الكمال الثابتة لله تعالى وإحاطته سمعاً وعلماً بشؤون خلقه، فهو الذي لا تخفى عليه خافية، وقد شمل سمعه وعلمه شمول ملكه الواسع مما سكن في الليل والنهار، أو في السماء والأرض. ويهدف إلى تحريك القلوب وإثارة الإحساس باستشعار مراقبة الله تعالى في الأقوال الظاهرة أو النوايا الباطنة، وبذلك يكون الإقرار بالتوحيد والإيمان خاضعاً لسمع الله وعلمه.

٣. وتعلّق سمع الله وعلمه في السياق القرآني بأحوال الخلق من حيث موقفهم من الإيمان، وأحوال الرسول محمد ﷺ الذي يوحى تعلق سمع الله وعلمه بأحواله بمبلغ عنايته ورعايته له سبحانه بوصف ما جاء به من رسالة وهداية يمثل عنوان الصلاح لهذا الوجود، ولهذا آثار بالغة تنعكس على عزمته ﷺ وثباته في تبليغ الدعوة والثبات عليها، والصبر على تبعاتها.

٤. وتعلّق بسياق الدعاء في الخروج من الأزمات، أو في التضرّع إلى الله بقبول العمل الصالح ارتقاءً في سلم الكمال، أو في تقديم أنفس ما عند الإنسان خدمة لدين الله تعالى. ويمثل الدعاء تعلّق القلب بالله لجلب نفع أو دفع ضرر وحالة الداعي النفسية تستدعي أن يكون الله معه بسمعه وعلمه. وارتبط الاقتران بآيات الدعاء بحدث مباشر منجز بخلاف سائر آيات الدعاء.

٥. كذلك، ورد في المواطن شديدة الوطأة على المؤمنين، التي تتأزم فيها الحالة النفسية والمعنوية عندهم، فهم أحوج إلى أن يكون الله تعالى في غاية القرب منهم بسمعه وعلمه، يسمع ما تلهج به ألسنتهم، ويسمع أنات قلوبهم، ويعلم ما يشغل بال نفوسهم، فقد ورد هذا في سياق القتال من حيث الأمر به، والاستعداد له، ومواجهة أعداء الله به، ومن حيث آثاره المتحققة بالنصر أو مسالمة أعداء الله تعالى، وعدم توظيفه لإكراه الآخرين وإجبارهم على ترك معتقداتهم.
٦. إن ورود هذا الاقتران كان معظمه متصلاً بالمؤمن يتحسس أقواله وخواطره ويتلمس همومه وما يؤرقه فيشكل له الإنس والسلوى، ويفتح له باب الأمل ليستمر على الصراط المستقيم، وخصوصاً في سياق الدعاء والقتال، والرزق والأجل.
٧. وفرض هذا الاقتران رقابة إلهية على التزام العبد بقضايا تشريعية، وأول هذه القضايا الاحتكام إلى مرجعية الوحي وعدم تجاوزها بقول أو فعل أو حكم. ثم الزكاة أو الصدقة والموقف منها خصوصاً من جانب المنافقين الذي يتربصون بالأمة ينتظرون هلاكها ويرد الاقتران هنا رقابة عليهم وحماية للأمة من مكرمهم. ثم الوصية والالتزام بها خشية تبديلها، أو العبث بها من الورثة أو الأقارب. ثم التشريع في الأيمان، واليمين نطق ظاهر ونية باطنة. ثم الطلاق ويقتضي نطقاً ونية. ثم تشريع التخفيف عن المرأة القاعد في الحجاب. ففي التشريعات تلحظ رقابة الله تعالى بسمعه وعلمه، أما سماعه فلما فيها من إبداء المواقف بالقول، أو التجاوز على ما شرع الله بالنطق والتلفظ بكلام مخالف لما أنزل الله، وأما العلم فلانطواء هذه المواقف على نيات ومقاصد لا يعلمها إلا الله تعالى.
٨. واقترن مع التحذير من وساوس الشيطان باطنياً باتباع وساوسه وما يزينه في قلب الإنسان، وظاهراً من حيث اتباع خطواته، ليجمع الترهيب إلى الترغيب. واختلف هذا الاقتران من حيث إن تلك الاقترانات وردت في سياق الموقف من وحي الله وتشريعه، أو في تعامل الإنسان مع غيره، أما هذا الاقتران فقد ورد فيما بين الإنسان ونفسه. فأصوات قلبه ونفسه مسموعة من الله تعالى، وكذلك نواياه لا تخفى على علمه تعالى. واتباع خطواته قولاً وعملاً كذلك.
٩. وأقيم هذا الاقتران شاهداً على سنن الله في الخلق، فسنة إرسال الرسل واصطفاء الأنبياء سنة ثابتة، وما جاء به الأنبياء من منهج هداية سنة ثابتة، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى

يغيروا ما بأنفسهم سنة ثابتة، وأنّ الرازق هو الله تعالى سنة ثابتة، والأجل سنة ثابتة، وأخيراً، فإن مجاوزة الحدّ في التظلم ظلم. وهذه كلها سنن جارية في حياة الخلق، ليس منها سنة كونية بل كلها سنن اجتماعية نافذة في حياة المجتمعات والأفراد. والالتزام بهذه القوانين ينبغي أن يتحقق في القول الظاهر، والنية القاصدة، والله بهما سميع عليم.

المصادر والمراجع

١. ابن الأثير، المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية، ٣٩٩ هـ.
٢. الأصفهاني، الحسين بن أحمد المعروف بالراغب، مفردات القرآن، تحقيق: سيد كيلاني، بيروت، دار الكتب العلمية، بلا تاريخ.
٣. الألويسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بلا تاريخ.
٤. البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، بيروت، دار ابن كثير، ٤٠٧ هـ.
٥. البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٤١٥ هـ.
٦. البيضاوي، ناصر الدين، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت، دار الفكر، بلا تاريخ.
٧. البيهقي، أحمد بن الحسين، الأسماء والصفات، تحقيق: عبد الله الحاشدي، جدة، مكتبة السوادى، ١٩٩٣ م.
٨. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي الألعي وآخرين الرياض، دار العاصمة، ٤١٤ هـ.
٩. الجرجاني، علي بن محمد، التعاريف، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، ٤٠٥ هـ.
١٠. الجصاص، أحمد بن علي الرازي، أحكام القرآن، تحقيق: محمد قمحاوي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٤٠٥ هـ.
١١. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، بيروت، المكتب الإسلامي، ٤٠٤ هـ.
١٢. أبو حيان، أثير الدين محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين، بيروت، دار الكتب العلمية، ٤٢٢ هـ.

١٣. الخطابي، أبو سليمان، حمد بن محمد، شأن الدعاء، تحقيق: أحمد الدقاق، بيروت، دار الثقافة العربية، ١٤١٢ هـ.
١٤. الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١ هـ.
١٥. رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار (مصر، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٠ م).
١٦. الزجاج، أبو إسحق إبراهيم بن محمد، تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق: أحمد الدقاق، دمشق، دار الثقافة العربية، ١٩٧٤ م.
١٧. الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بلا تاريخ.
١٨. أبو زهرة، محمد أحمد، زهرة التفاسير، بيروت، دار الفكر العربي، بلا تاريخ.
١٩. أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بلا تاريخ.
٢٠. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، تحقيق: أحمد شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ.
٢١. ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون، ١٩٩٧ م.
٢٢. ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤ هـ.
٢٣. العسقلاني، أحمد بن علي، ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩ هـ.
٢٤. ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز، تحقيق: عبد السلام محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣ هـ.
٢٥. الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير، ملاك التأويل، تحقيق: سعيد الفلاح، بيروت، دار الكتب العلمية.
٢٦. الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق: بسام الجابي، قبرص: الجفان والجابي، ١٤٠٧ هـ.
٢٧. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار إحياء التراث

العربي، ١٩٨٥م

٢٨. القشيري، عبد الكريم بن هوازن، لطائف الإشارات، تعليق: عبد اللطيف عبد الرحمن، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م.
٢٩. قطب، سيد، في ظلال القرآن، بيروت، دار الشروق، بلا تاريخ.
٣٠. ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي سلامة، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ.
٣١. النسفي، أبو البركات، عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: مروان الشعار، بيروت، دار النفائس، ٢٠٠٥م.
٣٢. المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، مصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٦م.
٣٣. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، بلا تاريخ.
٣٤. الموسوعة الفقهية الكويتية، الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٠٤هـ.